

مكتبة ثقافية

محمد الرسول

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي
فأناصركم

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الأول

بمقام

أنور الجندى

كتب ثقافة

الكتاب ٣٩

محمد الرسول

"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ
فأنصتكم"

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الاول

بمقام

أنور احمد

مفتيكم

كانت شخصية محمد « صلى الله عليه وسلم » الإنسانية مدرسة للرجولة وقدوة للإنسان من حيث هو « إنسان » بتصرفاته وحكمته وضبط أعصابه وسلامة صدره وإيمانه بفكرته . كما هو قدوة للزعماء والقادة في معاملة خصومه وأنصاره على السواء .

وستظل حياة محمد مثلاً أعلى لحياة الإنسان الكامل الذي جمع في شخصه كمال الشخصية . العابد المؤمن . والمحارب القوي . والقاضي العادل . والحاكم اليقظ فقد استطاع أن يمتلك قيادة الجماعة بأرفع ما امتلكتها زعيم أو قائد .

وهو حبيب إلى قلوب العرب جميعاً . ليس باعتباره زعيم دعوة دينية : وإنما باعتباره سيد من سادات العرب . ونخر من أجداد تاريخهم . بل لقد أصبح حبيباً إلى قلوب عدد كبير من عباقرة الفرنجة وأعلامهم .

« ومحمد بن محمد الله » بعد هذا كله بطل عربي كبير ، هو موضع

الاعزاز من المسلمين والمسيحيين على السواء باعتبار أن بطولته هي جزء من عظمة الأمة العربية التي تحقق لها السيطرة والتوجيه للعالم حقبة طويلة من الزمن كانت خلالها حامية الحضارة والأمانة عليها وذات الفضل الواضح في زيادتها والإضافة إليها .

ولقد حرصت أن أدرس « محمد الإنسان » : أدرس شخصيته بأسلوب جديد يقوم في أغلبه على أساس عرض نماذج وصور من هذه الحياة دون تعليق كبير عليها تاركا لهذه الصور وحدها قوة النفاذ إلى النفس المحبة لعظمة نفس كبيرة . ويكفي أن تُعرض هذه الوقائع عرضاً جديداً بطريقة مبتكرة لتحكي بنفسها قصة الحياة الإنسانية في شخصية محمد .

ولقد مضيت أحقق هذا الجانب الذي أغفله الكثير ممن تناولوا السيرة وهو الجانب النفسي والشخصي الخاص .

وصورت كيف كان النبي إنساناً يأخذ حظه من الحياة ويتصرف في الأمور كما يتصرف البشر . وكان في صميم طبيعته البشرية الرجل الذي يتناول الأمور بهــقله ويقضى فيها بتجربته الخاصة .

وأنه قبل أن يكون نبياً - وفي خلال أربعين سنة قبل بعثته - كان إنساناً محبوباً موصوفاً بالأمانة والخلق . أوتى الشماثل الحلوة في حديثه واتصاله بالناس حتى لقد ارتضته القبائل جميعاً حكماً ، عندما دخل السكبة وهم يتنازعون في شأن الحجر الأسود . ورضيته خديجة زوجاً لها ووصفته بأنه يحمل الكل ويمين على نوائب الدهر .

لقد ذهب كثير من المؤرخين إلى البالغة في تجسيم عظمة شخصية محمد ولم يكن تاريخه صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى مثل هذا . فإن عظمته في بساطته وقربه من التصرف الإنساني ، وبعده عن الغلواء . كما ذهب البعض الآخر إلى الاستزادة في قدر الصلة بينه وبين السماء حتى كاد هذا الجانب أن يطنى على جانبه الإنساني الضخم . وفي ذلك ما فيه من تجاهل للطبيعة الإنسانية . وتحامل على الرجل من حيث هو إنسان وبشر .

لقد كان محمد قبل كل شيء إنساناً ممتازاً ، أوتى قوة الشخصية هذه القوة التي تسيطر بالجاذبية المودعة فيها . وبالإقناع والحب والإشعاع لا بالقسر ولا بالقوة . كما أوتى الجرأة والبلاغة والمرونة

والحكمة : وهى صفات إنسانية كانت بعيدة الأثر فى قدرته على أداء رسالته .

وإذا قيل إن النصر يرجع إلى الإيمان فإن الإيمان إنما يرجع إلى الإلتفاف حول القائد واقتدائه والثقة به وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الحب متبادلا بينه وبين جنده . ولقد كان أصحاب محمد يحبونه إلى أبلغ حدود الحب ويفقدونه غاية الفداء . ويرجع هذا إلى شخصيته أولا .

وكذلك كان محمد على مبالغ الخصومة التى كانت بينه وبين أعدائه موضع الاحترام والثقة والمهابة منهم . كانوا يرون فيه الرجل الصادق الذى لا يكذب والأمين الذى لا يخون والوفى الذى لا يفدر .

وقد تجلّى هذا فى موقفهم منه قبل الدعوة فى شأن الحجر الأسود . وفى أول البعثة عندما ناداهم على الصفا . وفى فتح مكة عندما عفا عنهم وأطلقهم وهو أقدر ما يكون عليهم . ذلك هو محمد الإنسان فى شخصيته التى نمرضها فى هذا الكتاب .

أنور الجندى

قصة التاريخ

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ،
واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى
من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش
بنى هاشم .

كنت نبياً وآدم بين الماء والطين . إني
عبد الله وخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في
طينته . إني دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى ،
ورؤيا أمي . »

[محمد صلى الله عليه وسلم]

ولد يتيمًا من الأب . وماتت أمه وهو طفل . وتنقل بين

كفالة جده عبد المطلب . وعمه أبو طالب : وأرضعته حليلة بنت ذويثبة السعدية ، بعد أن أعرضت عنه المراضع ليطمه ، وقد ترددت بين أن تأخذه وأن تدعه . حتى إذا أظفنت كرهت أن ترجع بغير رضيع . وقالت : والله لأذهبن إلى هذا اليتيم ولأخذه . وقال زوجها : لا عليك أن تفعل . وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . وأقام صلى الله عليه وسلم بالصحراء في بني سعد إلى الخامسة من عمره حتى كان يقول فيما بعد لأصحابه : «أنا أعربكم . أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر » .

رحل إلى الشام في الثانية عشرة من عمره ، واشترك في حرب الفجار ، وجمع السهام التي تقع من هوازن « ودفنها إلى أعمامه ، ثم حمل السهام ، ثم رمى السهام بنفسه » .

واشترك في حلف الفضول ، وكان يقول : « ما أحب أن لي

بمخلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت به لأجبت .

ورعى الرسول صلى الله عليه وسلم النعم ، وكان يقول « ما بعث الله نبياً إلا راعى غم » .

ثم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم استننى على رأس الأربعين ، وألقيت على قلبه كلمة الحق ، لأول مرة في غار حراء ، فكان الإسلام دعوة في قاب « فرد » .

وأرسله الله تعالى إلى قومه داعياً إلى الإسلام ببطن مكة من الجزيرة العربية ، وكانت مكة على الوثنية المخرقة من عبادة الأصنام فأسر بالدعوة حتى أذن الله له أن يجهر بها . فدعا عشيرته الأقربين ثم أذاع الدعوة في الناس جميعاً ، فاكتمل له في ست سنوات أربعين رجلاً إلا واحداً .

وقد أخذته قريش بالساءة . فأتت سلاحاً من أسلحة الاضطهاد إلا اصطفعت . حاربت باللسان واليد والقاء التراب

والرؤث، وتعذيب اتباعه فما ضجر لذلك، بل استقبله صابراً محتسباً،
مؤمناً بتأييد ربه ونصره .

والوحي رواح غداء ، بآي الذكر الحكيم « يثبت به فؤاده
ويرسل إليه مزيداً من التأسى والاصطبار . و يروى له ما كان من
جهاد الأنبياء والرسل وذوى العزم - مع الناس من قبل -
وما لقي هؤلاء وأولئك من تعذيب واضطهاد ، فصبروا على
ما أودوا حتى أناهم نصر الله .

« إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » ذلك هو نذير النبوة الأولى
« لتكذبن ولتؤذين ولتخرجن » وهذا هو نذيرها الثانى .
ثم ماذا ؟ .

حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا . أناهم نصرنا »
وحاولت فريش مع رسول الله المحاولات . ترده عما يدعو إليه ،
تعمد إلى اللين تارة وإلى التهديد تارات . احتكت إلى عمه في أمره
مرات . وسامته على أن تجعله ملكاً أو غنياً ، فكان رده تلاوة
آيات من القرآن ، كانت موضع التأثير البالغ في نفس مساومه ،
فضى على أثرها مذهولاً مأخوذاً .

واشتدت وطأة قريش على محمد وأصحابه ، لما رأوا من كثرة أتباعه فتآمرت على عقد « مقاطعة اقتصادية » قاسية ، كتبت بها صحيفة علقت في جوف الكعبة ، وحصرت بها محمداً وأصحابه في « شعاب » مكة ثلاث سنوات . لا يبيعون ولا يتقاعدون ، كان طبيعياً بعدها أن يأمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة عليهم يجدوا بها حظاً من الأمن والحرية . فهاجر فريق منهم فاراً بدينه من طغیان قريش .

ولم يقف أمر الاضطهاد عند هذا الحد . بل تعداه إلى أشد حالاته بعد موت أبو طالب وخديجة . وانتهى ذلك إلى هجرة رسول الله إلى الطائف . فوجد من أهلها أقسى مما لقي من قريش هسفاً ومساءة ، فقد تألبوا على قتله ، فلما انصرف شقوه بالأحجار في عقبه الشريفين حتى دميتا ، فلما اشتد به ، جلس يستجمع قواه . ودعا دعاءه المعروف « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس » واستمع إليه جن نصيبين فأسلموا ، بعد أن استمعوا إلى القرآن ، وأقام بنخله أياماً قبل أن يعود إلى مكة ، وقاله رفيقه زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك ،

قال يازيد : إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً . وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وامتدت أعوام الاضطهاد بالمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ثلاثة عشر عاماً منذ أذن بالدعوة « وامتدت مع هذه الأعوام صور العنت في مختلف ألوانه وصوره ، صباح مساء » ما يزعزع ذلك من إيمانه وصحبه شيئاً « بل كان يزيدهم قوة وإيماناً وصبراً ويقيناً » وهو بين ظهرائي المسلمين « يلقاهم في ابتسامة الكريمة » وبشاشته الرضية ويذكرهم بوعد الله بال نصر وإنه لآت .

(٢)

ودهشت قريش لأمر محمد وأمر أتباعه ، وأغراها هذا الصبر والثبات على المحن « إلى أن تسترسل في غيها ، وتزداد في اعنائها ، وقريش مع هذا كله تعلم صدق « محمد » ، لكن كبريائها وتمسكها بمخلفات الآباء من مجد وهمى « ظل يصرفها عنه صرفا » ويزيدها إلى إضطهاده دفعا « وهى تتعمل إلى ذلك بالعلل « أنؤمن لك واتبعك الأرزلون » إنه التمسب البالغ لمخلفات الآباء ، والحققد البالغ على ما أوتى محمد « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وهم مع هذا الحققد يتسللون إلى مصلى رسول الله فيستمعون إلى القرآن ليلة فليلة .

ثم مضى كل فى طريقه ، محمد دائب على إبلاغ دعوته لا يضيره من أمر هذا القاصر شيئا . وقريش ساعية فى طريقها تبحث عن الوسائل التى ترد بها الفاس عن دعوة الحق « أو تقضى بها على محمد وأسرته وصحبه .. حتى أسرى به صلى الله عليه وسلم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء ، ثم ما لبث

أن عاد إلى فراشه قبل أن يشرق الصباح ، وقد فرض عليه ربه الصلاة . فلما أصبح أخبر الناس فاشقد تكذيبهم له وارتأبت قريش لحديثه ، وأخذ فريق منهم يسألونه عن أمر بيت المقدس وصفته وهو يحبيهم ، وما يقنعهم ذلك ، أو يرسل إلى قلوبهم بصيص من الإيمان بدعوة الله .

وقد ارتد عن الإسلام بعد هذا الحديث فريق من ضعاف الإيمان الذين أصابت نفوسهم الريب في أمر الإمراء والمراجع . وما لبث أمر الدعوة الإسلامية أن تكشف عن ضياء جديد ، يأتي من طريق « يثرب » فقد أخذ محمد يعرض نفسه على القبائل حتى جاء سبعة من أهلها . اتقوا به عند العقبة ، فلما سمعوا منه قالوا : والله ان هذا هو الذي تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم اليه .

فلما انصرفوا إلى قومهم ، وافوا الموسم عام قابل وهم اثني عشر ، فبايعهم رسول الله بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم أول سفير في الإسلام « مصعب بن عمير »

فلما استدار العام ، وأقبل الموسم ، وآفى ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتان ، واجتمع بهم رسول الله في هزيع من الليل فبايعوا البيعة الكبرى :

فلما عادوا إلى يثرب أذن محمد لأصحابه بالهجرة فكان بين أولهم وآخرهم أكثر من عام . فجعلوا يترافقون بالمال والمظهر ، وكان من أولهم هجرة أبو مسلمة عبد الله بن عبد الله ، وعمار بن ياسر ، وسعد بن أبي وقاص . وابن مسعود ، وبلال ، وآخرهم هجرة رسول الله وأبو بكر وعلي بن أبي طالب .

وقد ظل رسول الله مقبلاً في مكة حتى هاجر أنبأه فلم يكن إلا آخر من هاجر منهم .

وأذن الله لرسوله في الهجرة بعد أن تجمعت قريش حول داره تحاول أن تقتله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وخرج فأتى عليهم التراب . ومضى إلى بيت صاحبه « الصديق » فركبا إلى غار ثور . فاخبتا فيه ثلاثة أيام ، وقريش تنهب الأرض نهباً ، وتتبع الآثار « وتعرض المروض » وتصل إلى باب الغار « ثم ترد عنه » وقد غشاها المنكبوت وباض على بابها الحمام .

« الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانياً اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » فأُنزل

الله سكينته عليه . وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذنب كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا .

وفي يوم الاثنين الأغر « الثاني عشر من ربيع الأنور » على رأس ثلاث عشر سنة من البعثة ، نزل إلى حانب الحرة ، فضى في طريقه ومعه صاحبه حتى أشرف على « يثرب » .

وكانت طوائف المؤمنين من المهاجرين والأنصار تخرج كل يوم إلى ظاهر المدينة تنتظر مقدمه فاذا هي ذات يوم ، وقد صاح اليهودى مناديا : « يا بنى قيله ، هذا جدكم الذى تنتظرون قد جاء » ومضى في طريقه ، كل قبيلة تحاول أن تعرض عليه نفسها ليأوى إليها ، وتنادى هلم إلى النعمة والقوة والثروة يا رسول الله فيقول لهم خيرا ، وناقته ماضية في طريقها ، وقد أرخى زمامها ، فلم تزل سائرة به حتى بركت بمربد بنى سهيل وسهيل من بنى النجار ، ومن مبركها بنى النبی مسجده ، وعمل فيه بيديه ، ثم بنى مساكنه إلى جواره ، وأقام رسول الله بيت أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

وبدأ عمله في المدينة بكتابة أمان وموادعة لليهود ، وبعد هذا الأمان من أعظم وثائق التاريخ الإسلامى ،

وأخى بين تسمين رجلا من المهاجرين والأنصار ، وظل الأخاء مقدما على القرابة ، حتى اشتد ساعد الدعوة فنسخ التوارث بالمؤاخاة بعد « بدر » .

بـاستقراره في المدينة انتقل الإسلام إلى مرحلته الطبيعية « مرحلة الدولة » القائمة على النظام القرآني ، ومن ثم تمت صلاة المقيم أربعاً بعد أن كانت ركعتين . وفرضت الزكاة ، وأذن الله بالقتال ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير » .

وقامت الدولة الإسلامية الجديدة على قواعد العدالة والاخاء وكفالة الدم والمال والعرض . ثم أذن للصلاة ، وأسلم عبد الله ابن سلام من أكبر أحبار اليهود ، وحاول اليهود الوقيعة بين الأوس والخزرج؛ بعد أن جمعهما الله على الإسلام، وصرف الله الكعبة إلى مكة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً بعد الهجرة .

وبدأت عصابة المسلمين تواجه صراعاً جديداً بينها وبين خصومها ؛ صراعاً من نوع آخر يختلف عما لقي المسلمون بمكة فقد كان في المدينة اليهود ، وهم قوم جدلون خصمون ، وقد طال

جدلهم ، وطال بهم القأمر ، بعد أن أظهر الله أمر رسوله .

منذ فرض الله القتال ، والسرايا الإسلامية لانقطع . وقد بدأها بعث رسول الله لعمه حمزة بن عبد المطلب . في ثلاثمائة ، إلى ناحية « الميص » على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، وكان أول من رمى بسهم في الإسلام : سعد بن أبي وقاص ، في سرية عبيد الله بن الحارث .

وأخذ المسلمون يترصدون غير قريش ، وتوات سرایهم . يل أن الرسول خرج بنفسه على رأس اثني عشر شهراً من مقدمة المدينة وسار إلى الأبواء ثم خرج بعد ذلك مرتين أو ثلاث

وقد كانت هذه السرايا تدريباً وإعداداً للجيش الإسلامي وترصداً لغير قريش . فلما خرج أبو سقيان بقافلته الضخمة رقبه المسلمون حتى إذا أقبل عائداً من الشام ، ندب رسول الله المسلمين لها ، وقال : هذه غير قريش فاخرجوا إليها . لعل الله أن ينفلكموها ان الله وعدني إحدى الطائفتين : المير أو النفير

فخرج محمد لثمان خلون من رمضان من السنة الثانية من

الهجرة بعد أن استعمل على المدينة «أبا لبابه» وجعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة . واعتقب كل ثلاثة من المسلمين بغيراً . وكان رفيقاً رسول الله : علي بن أبي طالب . ومرثد بن أبي مرثد الغنوي . وقد استأذنا رسول الله في أن يظل راكباً بعد أن قطع مرحلته « فأبى عليهما وقال : ما أنتما بأقوى مني ، وما أنا بأقل حاجة إلى الأجر منكما .

وأخذ رسول الله يث عيونه في حصافة القائد الخبير ويقتطس الأخبار ، فلما وصل المسلمون أدنى ماء بدر تبينوا أن أبا سيفيان اتخذ طريقاً مغيراً ، فقد حاذى سيف البحر ومضى بالمر في الوقت الذي خرجت فيه قریش تدفع عن قافلتها عدوان المسلمين ومن ثم تغير وجه الأمر ، من المير والغنيمة ، إلى ذات الشوك والحرب . واستشار صحابته فتكلموا واحداً بعد واحد ، ورسول الله ما يزال يقول عبارته الخالدة « أشيروا علي أيها الناس » ومن ثم وثب « سعد بن معاذ » وقد أراحه رسول الله ، وأحب أن يعرف رأيه ورأى أصحابه ، من الأنصار الذين بايعوا يوم العقبة على أن يمنعوا رسول الله في حدود مدينتهم ولم يتعدوها بعد .

فقال كلاماً طويلاً خلاصته النصر والتأييد والنصرة « ومن

ثم نزل المسلمون بدرًا وأفطر الصائمون « ونشبت الحرب ، وأيد الله رسوله بالآيات والملائكة والمطر .

والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من رمضان « وقد أمد الله المسلمين بالنصر . وقتل بلال معذبه وواضع الحجر على صدره « أمية بن خلف » وأخذ رسول الله حفنة من الحصباء فرمى بها قريش ، وهو يقول « شأنت الوجوه » ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً ، وأذل الله بيدرك رقاب المشركين

ورأى رسول الله في الأسرى رأيا ، وأنزل الله أمره « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا » والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم «

وقد ألقى نصر الله للمسلمين في بدر ، الفزع والرعب في قلوب القبائل والبطون ، ومن ثم بدأ اليهود يأمرون « فأخذهم رسول الله بالقوة ، بعد أن لم تغلح المهادنة ، فقتل المسلمون منهم أبو عصفك وعصماء وكعب بن الأشرف . وقد كانوا يعيبون الإسلام ويؤذون النبي .

ثم حاصر المسلمون بني قنيقاع فأجلوهم عن المدينة

ثم بدأت قريش تتجهز للنار من بدر ، ونهياً لقتال

المسلمين وقد سارت جوعهم إلى المدينة ، وبلغ خبرها رسول الله قبل أن تتحرك . فشاور أصحابه فقال أغلبهم بالتحصن بالمدينة العذراء التي لم تفصى على أهلها قط . ولكن فريقاً ممن لم يشهدوا بدرأً أحبوا أن يخرجوا إلى العدو حتى لا يظن أنهم كرهوا الخروج أو جبنوا عنه .

وخرج محمد وقد لبس درعه وتقلد سيفه . وقد تراجع المسلمون إلى رأى القائل بالبقاء في المدينة فقال النبي : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتُم . وما ينبغي لنبي إذ لبس لأمة أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتبعوه . والنصر لكم ما صبرتم » .

وخرج المسلمون إلى « أحد » وقد انفصلت كتيبة ابن سلول فقفلت راجعة منخذلة . وكان ذلك من الخير فلا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك .

والتقى الجمعان بعد أن وضع رسول الله الرماة فوق الجبل ، وأمرهم ألا يبرحوا أما كنهم ، انتصر المسلمون أو هزموا . وقاتل المسلمون مستبسلين حتى إذا ظهرت علائم النصر ، وبدأ المسلمون يغممون ، عندئذ ترك الرماة أما كنهم واعتبلها « خالد » فرصة فأغار على الباقيين منهم فقتلهم . ودار برجاله وراء جيش المسلمين ومن ثم دارت الدائرة على المسلمين .

وتصاح القوم أن رسول الله قد قتل ، في الوقت الذي كان رسول الله محاطاً بالمسلمين . وقريش تقذفه وتقذف المسلمين بالحجارة التي أصابت ربايعيته ، وشجت وجهه ودخلت حلقتا المغفر في وجنتيه وسقطت ثنياته . واستمات المسلمون في الدفاع عن رسول الله . وترس سعد وأبو دجانة دون رسول الله . وبقي رسول الله في هدوء واطمئنان يستقبل هذا الظرف العصيب ، دون أن تفارقه ثقته بنصر الله طرفه عين ولا أقل من ذلك .

واستشهد الكثير من المسلمين بعد البلاء الصادق . والجهاد الطويل « ومئات قريش بالمسلمين . وكان أفظمها تمثيلا حمزة ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولكنهم لم يلبثوا أن خرجوا في الغداة

إلى (حمراء الأسد) وقد أذن رسول الله ألا يخرج إليها إلا من حضر (أحداً) .

وأقام وأصحابه بها ثلاثة أيام يوقدون النار ويتربصون بقريش أن تمود . ولكن قريشاً كرهت المود ، وقفلت راجعة إلى مكة ثم قفل بعدها الرسول وأصحابه إلى المدينة وقد استرد المسلمون هيبتهم بهذه المناورة العسكرية البارة .

ولم ينقطع بين غزوتي (أحد — الأحزاب) سيل السرايا . وقد كان أبان أحداث هذه الفترة ، حادث الاغتيال في الرجيع وبئر معونة ، وقصتهما متشابهة ، فقد جاء أقوام يقولون أن فينا إسلاماً فابعث معنا نفرأ من أصحابك يعلمونا شرائمه ، ويقرؤنا القرآن ، فأرسل مع أهل نجد سبعين رجلاً ضربت أعناقهم ، ولم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الذي حمل الخبر إلى رسول الله . وأرسل مع الآخرين عشرة ، قتل منهم ثمانية . منهم خبيبا وزيداً .

وفيما يحدث هذا كله ، يتربص اليهود بالمسلمين الدوائر ، ويظهرون البشر والرضى ، لما يصيبهم من أحداث ، ويأتمرون بهم ، بل لقد ائتمروا فعلاً برسول الله عند ما زار محلة بني النضير قريباً من « قباء »

وقد رجع إلى المدينة . وذكر لأصحابه أمر يهود ، وبعث
توأم محمد بن سلمه إليهم يقول لهم : إن رسول الله أرسلني إليكم
أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممت
به من الغدر بى ، ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رثى بعد ذلك ضربت
عنقه . فلما أخذت يهود تناهب للرحيل حرضهم ابن أبى سلول
على البقاء .

ولم يمهلهم حتى يدبروا أمرهم . بل سار إليهم بعد العشرة ،
فقاتلهم عشرين ليلة . فغربوا بيوتهم بأيديهم ، وأمر رسول الله أن
تقطع نخيل يهود وتحرق . وجبن « ابن أبى » فلم يوف لهم ما وعد
من العون . فسألوا رسول الله . أن يؤمنهم حتى يخرجوا فأمهم .
فخرجوا إلى أذرعات بالشام ، وتركوا وراءهم كل ما يملكون غنا
للمسلمين ، وبذلك أجلى رسول الله اليهود عن المدينة فاطمأنت
وضربت الذلة على الناقضين الذين كانوا يجدون منهم عوناً وسنداً

واستدار المام وذكر محمد كلمة أبى سفيان فى أحد « يوم بيوم
بدر وموعدا المام المقبل » فخرج رسول الله وخرج المسلمون إلى

بدر ، وخرجت قريش ثم عادت بعد مسيرة يومين بعد أن أذن
فيهم أبا سفيان بأنه راجع فليرجعوا

واستقر أمر الله وأمر دعوته بالمدينة ، ولم يكن من السير
على قريش أن تترك المسلمين دون أن تدبر لهم أمراً أو تكيد لهم
كيذا ، ورسول الله بالمدينة حذر يقظ « يث عيونهم في أطراف
شبه الجزيرة » تنقل إليه من أمرها كل صغير وكبير

وجاء الوقت الذي نظرت فيه قريش وقبائل شبه الجزيرة إلى رسول الله ودعوته نظرة الخصومة ، فقد كانت الدعوة الإسلامية تلاقى في ذلك الوقت خصومة اليهود . وخصومة قريش . وخصومة قبائل غطفان وهذيل . فما أن سعت بين قريش وبين هذه القبائل تؤلبها على محمد . حتى استمعت وتماهدت واستجابت . وخرجت غطفان وبني مرة وفزارة وأشجع وسليم وعلى رأسها أبي سفيان في أربعة آلاف .

بم لقي محمداً هذه الجموع الضخمة الحاشدة الممتعة في أسلحتها وعتادها ؟ لا شيء ! إلا أنه حفر الخندق مع أصحابه ، وعمل فيه بيديه فكان يضرب بيده ، ويحمل التراب ويحدث أصحابه في يسر وإيناس ويهون عليهم الأمر .

فلما صادفت أصحابه الصخرة الضخمة العاتية ، واستمعصت عليهم تناول رسول الله معوله وضربها في قوة ثلاث مرات تفتت

على أثرها . وبشر أصحابه بفتح فارس واليمن والشام . وحدثهم عن قصور القياصرة والأكاسرة وصنماء . وأبلغهم وعد ربهم بامتلاك هذه الأنظار .

وهكذا ، ظهر وميض الأمل والبشرى في أشد ساعات العسرة والقنوط . فما أن انتهى المسلمون من حفر الخندق حتى برزت جموع الأحزاب تغير على المدينة « وإذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم » وإذا زأغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر « وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » أما المؤمنون فقد قالوا حين رأوا الأحزاب : « هذا ما وعدنا الله ورسوله » وصدق الله ورسوله « وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » وارتدت هذه الجموع عن الخندق محنقة مغيظة خاسئة حائرة يائسة ، واستمر الحصار شهراً قامى فيه المسلمون صنوفاً من العنت والحرمان ، وترددت قريش في البقاء « وخذلها عوامل الشقاء وحطمت عزمتها مناورة « نعيم بن مسعود » الذى جاء رسول الله مسلماً مستخفياً فما زاد رسول الله عن أن قال له « خذل عنا ما استطعت ! فإن الحرب خدعة .

ثم جاءت الريح العاتية والعاصفة الصرصر، فاقتلعت الخيام،
وكفأت القدور، وملأت نفوس المشركين واليهود رعباً وفزعاً،
فتطيروا ودب في نفوسهم اليأس « وقفلوا راجعين » .

وأصبح المسلمون وليس هناك إلا بقايا من مخلفات الجيوش
المهزومة، ولم ينتظر رسول الله حتى يؤذن المصير، ونادى مناديه
من كان سامعاً قطعاً فلا يصلين المصير إلا ببني قريظة .

فحاصروا حصن اليهود . وامتد الحصار أكثر من عشرين
ليلة . حتى جاع من فيها . وعرضت قريظة الخروج فأبى رسول الله
ذلك عليها وقبلوا أخيراً بتحكيم « سعد بن معاذ » وقبل رسول الله .
وأخذت المواثيق على انفاذ حكمه فحكم بأن تقتل القاتلة وتقسم
الأموال وتسبى الذرية والنساء . فحفر الخنادق وجيء باليهود
فضربت أعناقهم فيها . وقسمت أموالهم وسبائهم . وزاد بذلك
أمر المسلمين استقراءً .



ومضى محمد في طريقه . ينظم الجماعة ويسوى الصف .
ويتمرف وجوه القوة والضعف فيها بمد ذلك الامتحان الرائع

الذى امتحن به المسلمون فى غزوة الأحزاب ، وبعد أن تجمعت شبه الجزيرة جميعاً على هذه الدعوة فى إهابها الفضة . وفى أدوار نضوجها الأولى تحاول أن تمزقها وتذروها لولا تأييد الله ونصره .

وخرج رسول الله إلى غزوة بنى المصطلق التى أعقبها فتنة عبد الله بن أبى بن سلول . حين قال لجلسائه :

— لقد تكاثرنا المهاجرون فى ديارنا . والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول « سمن كلبك يأكلك » . . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل .

وكاد أمر الفتنة أن يتسع لولا حكمة رسول الله الذى رد رأى عمر فى قتل (ابن أبى) وقال له : كيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه .

وإذن للرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها . ثم ما كان من إسراع أبى ابن سلول ينفى لرسول الله ما أذيع عنه ، ثم نزول القرآن يؤيد ما أنكر ابن أبى من قوله الظالمة .

وتعابعت الحقائق . فاذاع النافقون في أعقاب المودة من
بنى المصطلق ، « حادث الأفك » الذي استقبله رسول الله
كما استقبل كل الأزمات والحادثات والمؤامرات من قبل في رضا
وطمأنينة إلى أمر الله ، وفي حكمة القائد الخبير ، حتى نزل الوحي
ببرامة عائشة وحكم الله في رمي المحسنات .

وهكذا تضطرد حياة محمد من حلقة إلى حلقة . كلما النصر للدعوة والتجمع حولها . وكلما الأدالة من الخصوم والناقضين حتى مضت على الهجرة ست سنوات استقر فيها أمر رسول الله بالمدينة ، بعد أن قضى على شرذمة اليهود الخبيثاء الماكرين الذين كانوا أكبر المتآمرين على هذا الدين منذ بزغ فجره إلى اليوم .

وتتابعت الحوادث ، فأمر رسول الله المسلمين بالتأهب للحج مع ما في نفوس المهاجرين من حنين إلى مكة ، الوطن الأول ، وما في نفوس الأنصار من شوق إلى بيت الله الحرام .

وأذن رسول الله بالحج . وأرسل إلى القبائل يدعوها للاشتراك معه ، وساق المسلمون المهدي أمامهم علامة السلم والحج ، لا الحرب والقتال . وسار ألف وأربعمائة من أتباع رسول الله إلى مكة ملبين بالعمرة . وعلت قريش خبر رسول الله فخرجت تلبس جلود النمر . وتغزل بذى طوى ، وسمع رسول الله تأهبهم للبيعة من

دخول مكة . فقال : « يا ويح قريش » ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين . . فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفروا هذه السالفة (صفحة العنق) .

وحرص «محمد» على السلم عندما برزت جموعهم تواجه جموعه ، ونادى مناديه : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ؟ فلما تقدم الدليل سار المسلمون وراءه حتى وصلوا ثنية الزار . فلما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة رسول الله (القصواء) وقال الرسول « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش إلى خلة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

ونزل ونزل الناس ودارت الرسل بين المسكرين على أن الرسول وأصحابه إنما جاءوا زائرين لبيت الله المتيق . وأرسلت قريش «الحليس» إلى معسكر المسلمين . فأمر رسول الله أن يطلق الهدى أمامه « وراه الحليس . وقد امتلأ به سهل الوادي ناكات أو باره فأثر في نفسه مرآه . حتى رده إلى قريش دون أن

(٢ - محمد)

يلقى رسول الله ليحدثهم عن أمر محمد وصدق نيته في زيارة البيت .
ثم بعثوا « عروة بن مسعود » الذي حدث رسول الله
في جفاف وغلظة ، وعرف منه أنه إنما أفبل مع أصحابه ممظمين
للبيت ومعتمرين وعاد إلى قريش مشدوهاً مأخوذاً : وهو يقول :
إني جئت كسرى في مأسكه . وقصر والنجاشي ، والله ما رأيت
ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتذروا
وضوءه . ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . وإنهم لن يسلموه
لشيء أبداً : فروا رايكم .

وخرج بعض سفهاء قريش ليلة فليقة يرجون معسكر النبي
بالحجارة بغية أن يصيبوه ، فلما انتبدوا إليه عفا عنهم ، وأطلق
مراحهم . وأرسل رسول الله عثمان بن عفان فطال احتجاجه ،
وأشيعت الشائعات عن مقتله ، وغدر قريش به « فنادى رسول الله
أصحابه وقال : لا نبرح حتى فناجز القوم : ووقف تحت الشجرة
وبأيهم وضرب بيده على أيديهم . وقال : هذه بيعة عثمان .

وأيد الحق تبارك وتعالى هذه البيعة بالآيات الكريمة
« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يامنونك تحت الشجرة فلم ياتي

قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .

ثم مال بث عثمان أن عاد إلى رسول الله واتفق المسلمون مع قريش على التفاهم وندبت لذلك «سهيل بن عمرو» الذي رغب إلى رسول الله في الدودة عامه هذا ، على أن يرد مكة عام قابل فتخلى قريش له حرمها ثلاثة أيام . لبس عليهم إلا السيوف في القراب !

ودارت «المحادثات» بين محمد وبين سهيل طويلاً ، وضاق المسلمون لتشدد سهيل مع تسامح النبي . وكادوا يفتنون في دينهم لقبول رسول الله عروض قريش وأنزعج عمر بن الخطاب لذلك أشد الانزعاج ، حتى حادث أبا بكر وسئل رسول الله في الأمر وهو يقول : «ألسنا بالمسلمين . فعلام إذن تعطى الدية عن ديننا» ورسول الله يقول له «أنا عبد الله ورسوله . لن أخاف أمره ولن يضيعني» .

وكتب المهدي وعارض سهيل في عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» كما عترض على عبارة «رسول الله» وأقره

الرسول عليهما جميعا . وقبل رسول الله أن يرد إلى قريش من يأتيه منها . ولا ترد قريش من يأتيها من قبله .

وما كاد العهد يوقع بينهما « حتى قدم أبو جندل بن سهيل بن عمرو مقيداً بالسلاسل بهررخ ويطالب المسلمين بأن يضموه إليهم خوف أن يفتنه المشركين عن دينه . ورسول الله يجيبه في بساطة هدوء .

« أبا جندل امبر واحتسب . فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا . عهد الله « وإنا لا نقدر » .
وحلق رسول الله ونحر . وكذلك فعل المسلمون .

(٧)

وعاد المسلمون وهم ضائقون بأمر معاهدة الحديبية لولا نقتهم في رسول الله وما يهون عليهم أمرهم إلا الثقة في القائد والتسليم له في اليسر والمكره سواء .

ولهم لنى الطريق وعمر يحاذى رسول الله بركابه يحاوره في أمر الحديبية ثم يخشى من أمره فيرجع . وإذا بالوحي ينزل على النبي بسورة الفتح « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فيسر المسلمون وتهدأ نفوسهم وتستريح أفئدتهم . ثم يرون أن أمر الحديبية كان غاية في بعد النظر والدهاء والحكمة ، إنها هدنه السنوات العشر تهيء فيها الدولة الإسلامية الناشئة أمرها وتثبت قواعدها « وأنها الاطمئنان من الجنوب ثم هو الاعتراف بالمسلمين وبدولتهم ثم هو التقدير للاسلام

ولا يلبث أمر قريش وهى تعترف بمحمد أن يسرى في شبه الجزيرة مسرى النار في المشيم فيوقظ القلوب النافية ويرد النفوس المضطربة ، ثم يفد « أبو بصير » من بعد إلى المدينة

مسلماً ، فإرده الرسول وفاء لعهده ويقول له « إنا قد أعطينا القوم ماقد علمت . ولا يصح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولن ممك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطق إلى قومك . فلما مضى . قال رسول الله ويح أمه مسعر حرب لو كان معه رجال : وقد انطلق أبو بصير ف ساحل البحر ونزل العيص وتسمع به الذين احتجزتهم المماحدة في مسكة قاعةصبوا على ساحل البحر وقطعوا الطريق على القوافل والمسافرين . وقتلوا كل مسافر ونهبوا كل قافلة حتى بعثت قريش إلى رسول الله تسأله بالارحام أن يقبل هؤلاء ويسقط هذا الشرط وقد كان .

وفي ذلك العام وبين الحديبيه وعمره القضاء ، انفذ رسول الله أمربين بالغين في الأهمية ، فقد هاجم يهود خيبر وحاصروهم أعنف الحصار ، وطال أمره إيمانهم بالقوة ففتحوها واحداً واحداً واستقتل اليهود في الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئاً . وانهار سلطانهم وأذعنوا لأمر المسلمين وهاجر أغلبهم . وبقي بعضهم ، وبذلك قضى على سلطان اليهود في شبه جزيرة العرب قضاءً أخيراً

ثم أخذ رسول الله يرسل الرسل إلى الملوك يعلن اليهم دعوة

ربه فأرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارثين الفسائي بالحيرة
والحيرى باليمن وإلى نجاشى الحبشة يدعوهم إلى الاسلام . وفى ذلك
من الثقة ومن القوة النفسية ما فيه . وقد أجاب بعضهم
وامتنع آخرون

واستدار العام ، ومضى المسلمون إلى مكة يشارفون البيت
الحرام ويطوفون به وينحرون الهدى ويقضون الفريضة الكبرى
ثم يعودون إلى المدينة وقد أسلم خالد بن الوليد الذى قال : لقد
استبان لكل ذى لب أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن
كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه ۝

ومضى محمد فى طريقه . وقد استقام أمر الدهوة واستقر أمر الدولة
وانجحه بصر النبي إلى الشام فأرسل إليها ثلاثة آلاف من المسلمين
جعل على رأسهم أمير وخليفته ، وجعل على الجيش زيد فان
أصيب فجعفر ، فان أصيب فعبد الله بن وراحه ، وقد قتل ثلاثتهم
فى المركة وتسلم الراية خالد بن الوليد الذى داور بالمسلمين فى
تدبير حربى منظم حتى رجع بأصحابه دون أن يمرضهم لخطر هذا
العدد الضخم من المدو . ومالبثت قريش بعد ذلك أن نقصت

صلح « الحديبية » إذ حاولت بنى بكر حليفة قريش — فى الصلح أن تنال من خزاعة حليفة المسلمين .

وأذن رسول الله فى القبائل بالنأهب دون أن تعرف الوجه ، وأوفدت قريش أباسفيان إلى المدينة ليزيد فى المدة بعد أن يثبت العهد ، فلم يجد إلى رسول الله منفذاً أو نصيراً ، حتى أن ابنته زوج النبي خذلتها وطوت فراش رسول الله عنه وقالت له مقاتلها .

وتجهز المسلمون دون أن يعرفوا إلى أين . وضبط (على) كتاب (حاطب بن أبى بلعة) إلى أهل مكة . وعفا الرسول عنه بعد أن استأذنه عمر فى قتله وقال له : ما يدريك يا عمر . لذل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم

وزحف الجيش وهو لا يعرف وجهته ، بل يمضى فى طريقه بأمر قائده . وقد اشتركت فيه قبائل « سليم ومزينة وغطفان » فأمثلاً بهم الوادى ، وعلى رأس هذه الكتائب المؤمنة الصادقة رسول الله يبنى فتح مكة ويسأل ربه أن يأخذ عليهم الميرون حتى يأتهم بنقه ، وأن يحقق له أمره دون أن يريق قطرة دم واحدة .

وبلغ مر الظهران فنزل بها وأوقد النار وضربت خيام ألف فارس من المسلمين فغمزت الوادي فأمسى مهيبا رهيبا .

وخرج زعيم قريش «أباسفيان» يلتقمس خزاعه وقد ظن أنها قد حمشتها الحرب فلما بلغ المعسكر عرف أنه رسول الله والمسلمين ، وحاول عمر أن يقتله لولا أن أمته الرسول وأذن للعباس أن يذهب به إلى رحله حتى الصباح . واستمعصت شهادة الإسلام على أباسفيان فما نطق بها إلا بعد أن وقف يستعرض هذه الكتاب والنجائب وقد أربه أمرها وهزه من الأعماق حتى سأل العباس في لف ودهشة « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » .

وقد استجاب رسول الله لناحية الفخر والزعامة في نفسه فاعلن أن من دخل المسجد فهو آمن ، وعاد أبو سفيان إلى مكة يحدث أهلها بما لا قبل لهم به

ودخل رسول الله مكة دون أن تلقى جيوشه مقاومة تذكر بعد أن انحنى لربه شاكرًا أن فتح عليه مكة دون أن يراق فيها دم . وآوى إلى خيمته التي ضربت له قبالة جبل همد . وذكر رسول الله وذكر المسلمون كيف أخرجوا مهاجرين بعد أن اضطهدهم

أهل مكة وثبت لهم أن التربة المسكية لم تعد تصلح لما صلحت له
تربة يثرب من بعد

وخرج رسول الله فامطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ
الكعبة فطاف بالبيت سبعاً . ثم وقف على باب الكعبة ووقفت
قريش تسمع ماذا سيكون من أمرها بين يدي رسول الله ، وهي
التي آذته وأخرجته ولم تدع مكيدة في سبيل تحطيم دعوته إلا
اقتربتها ثلاثة عشر عام كاملة « ثم كيف مكرت بعد ذلك بالمسلمين
في أحد واخندق » ولكن رسول الله كان عفوا صفوحا .

قال يامعشر قريش : ماترون إني فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وهكذا صدر العفو العام من القائد العام بعد أن أمكن الله
لها من العدو ، وحطم رسول الله الأصنام « وأزال الصور من
حول الكعبة وعرف في الأنصار مخافة فقال لهم : الهيا محياكم
والمات مماتكم .

وأذن بلال فوق الكعبة « وصلى الناس خلف الرسول ،

وقال قولته الخالدة : « يا أيها الناس أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك منها دماً » أو يعصد منها شجراً ، ولم تحلل لأحد من قبلي ولا تحلل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

وأقام رسول الله بمكة . وقد أرسل السرايا إلى القبائل تحطم الأصنام وتهدم الأوثان . أرسل خالداً وأرسل علياً . وعلم رسول الله حين مقامه بمكة أن « حنين » تستعد لغزو مكة فبادرهم في اثني عشر ألفاً من المسلمين « تحركوا زاحفين إلى حنين ، وقد ملاهم الإعجاب بالكثرة والعدد » فوصلوا مع المساء فنزلوا على أبوابها حتى أصبح الصباح ، وما لبثوا أن انحدروا حتى واجهتهم عاصفة من النبال في عمية الصبح ، فاختلط أمرهم وانفجرت صفوفهم . وانقلبوا فارين ورسول الله في مؤخرة الجيش . وقد رأى هذه الجموع وقد أخذت تفر وتنحدر من حوله يميناً وشمالاً . وهو واقف على فرسه ، ثابت كالطود لا يريم « يردد في رباطه جأش قوله البليغة .

« أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » . وأدلى إليه العباس وأخذ باقي إليه أن ينادى : يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . أن محمد حي

فهللوا ، ورددت جنهات صوته أنحاء الوادى وأجاب المسلمون
عن جانب :

« لبيك . لبيك » .

وسمع المسلمون كلمة البيمة فعادوا فى قوة واستبسال . ونزل
بعضهم عن أفراسهم . وشدوا على العدو فى عنف ، وقوة .
واستماتوا ، وقد اشتد عودهم فلم يستطع خصومهم أن يثبتوا على
المقاومة طويلا .

ونظر رسول الله فرأى رجاله يقبضون على ناصية الموقف «
ونادى : الآن حى الوطنىس . إن الله لا يخلف رسوله وعده » .

« ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم
كثرتكم فلم تكن عنكم شيئا وضاعت عليكم الأرض بما رحبت »
ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين .
واستشهد عدد ضخم من المسلمين فى هذه الغزاة « وغنم
المسلمون وأسروا أكثر مما غنموا فى أى معركة من قبل .

ثم زحف رسول الله وأصحابه إلى الطائف يحاصرون ثقيفاً
وبضيقون عليها الخناق : ورى المسلمون الطائف بالمنجنيق ،

فلما امتنعت عن التسليم هدد رسول الله بقطع كروم الطائف وحرقتها
فلما أجمع المسلمون أمرهم تراجع ثقيف وبعثت إلى رسول الله
تسأله بالرحم أن يمهلهم فرجح رسول الله بجيشه . وقد أزمع أن
يعود إلى الطائف ما انتهت الأشهر الحرم .

ووزع رسول الله الغنائم بعد أن احتجز خمس الله ورسوله ،
وما أن انتهى منها حتى جاءه وفد «هوازن» مسلمين يسألون رسول الله
أموالهم ونسائهم . وقالوا : يا رسول الله إن في الحظائر عماتك
وخالاتك وحواضنك اللواتي يكفانك فاستمع إليهم رسول الله
وسألهم : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا :
يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا . بل ترد إلينا
نساءنا وأبنائنا .

فقال : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم : وإذا
ما أنا صليت الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى
المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا .

فلما انقفل من صلاته قالوا . فرد عليهم بمقالته برد ماله
وما لبني عبد المطلب فقالت المهاجرين على الأثر : وما كان لنا
فهو لرسول الله وقالت الأنصار مثل ذلك .

ووقف رسول الله يقسم النىء والمسلمون يتصايحون حوله
وقد أخذوا ردائه فصاح فيهم : ردوا إلى رداى أيها الناس .
فوالله لو أن لى بعدد شجر تهامة نما لقسمته عليكم ثم ما الفيتمونى
بخيلا ولا جياناً ولا كذاباً .

وأخذ رسول الله بعد ذلك يوزع النىء ، ويسطى المؤلفة قلوبهم
فى سخاء وكرم ، حتى بلغ عطاء أباسفیان ومعاوية مائتى من
الإبل . وأعطى عباس بن مرداس فاستقل الهطاء فقال . اذهبوا به
فاقطعوا عنى لسانه .

وتحدثت الأنصار عن عطاء رسول الله وقالوا : لى والله
قومه . وبلغت مقاتلهم رسول الله فنادى سعد ابن عبادة . وقال
ماقاله بلغتنى عنكم ياسعد : أجمع لى قومك فى الحظرة . فلما اجتمعوا
سمى رسول الله إليهم وخاطبهم :

يامعشر الأنصار ماقاله بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم
ألم آنكم ضاللا فهذا كم الله . وعالة فأغناكم الله . وأعداء فألف
بين قلوبكم . أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : أتبقنا مكذبا
فصدقتناك . ونخذولا فنصرناك . وطريدا فأوينناك . وعائلا فأسينناك

أوجدتم يامعشر الأنصار من لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً
 ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم . ألا ترضون يامعشر الأنصار
 أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم
 فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرؤاً من الأنصار .
 ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسألت شعب
 الأنصار . اللهم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار . وأبناء
 أبناء الأنصار .

فما باغ رسول الله من قوله هذا حتى فاضت العيون واخضت
 اللحى بالدمع الممتون . وقال القوم . رضينا برسول الله قسماً وحفظاً .

رسول الله بعد ذلك لغزو الروم إذ نأى إليه تفكيرها
 في غزو حدود العرب . فأخذ رسول الله يستعد لها وهو العليم
 بعمد الشقة وشدة انقيط وجذب الصحراء وقلة الزاد . وقد دعى
 رسول الله المؤمنين فلبوا ندائه وجاءوا بأنفسهم وبما لديهم
 ولم يصرفهم عن الفزاة شدة قيظ ولا صحراء .

وتخلف عن رسول الله فريق من المنافقين ، ممن بعدت
 عليهم الشقة ، ومن قالوا لا تنفروا في الحر . ومن قالوا ائذن لي
 ولا تفتنى .

وانتهز بعض المنافقين الفرصة ليخذلوا المسلمين عن الفزاة
 ويحرضوهم على التخلف . وعلم رسول الله أمرندوة سويلم اليهودى
 وأمر من يجتمعون على التخلف . فأرسل إليهم طلحة بن عبيد الله
 فحرق عليهم دارهم .

وأنفق عثمان في تجهيز جيش العسرة ألف دينار . وأنفق

غيره من المسلمين قدر ما استطاعوا . وفي الوقت الذي يحى فيه
المعدرون ليستأذنوا رسول الله في التخلف ، يحى الفقراء يريدون
أن يحملهم النبي ، فيرد بمضكم وهو أسيف حزين . ويقول لهم :
« لا أجد ما أحملكم عليه » فيتولوا وأعينهم تفيض من الدمع
حزنا ، أن لا يجدوا ما ينفقون .

وزحف جيش العسرة في ثلاثين ألف من المسلمين . وسار
الجيش في رعاية الله قاصداً « تبوك » فما أن بلغها حتى كان الروم
قد انسحبوا عندما علموا بمسيره ، فأمن الحدود وعاهد أهلها .
وعاد وقد تكشف له في حال عودته أسر المنافقين في آيات من
القرآن ، وصف فيها الحق لرسوله أصنافهم وأعمالهم فكان
عليهم شديداً بعد عودته ، حتى أنه أحرق مسجد الضرار بعد
أن استمهل أصحابه الذين دعوه ليصلى به قبل ظمنه إلى تبوك .

وظل رسول الله بعد ذلك يستقبل الوفود تأتي مبايعه إياه من
أطراف الجزيرة حتى سمي عامها ذاك بعام الوفود . وحج أبا بكر
بالناس ، ومضى في عقبه « على » موفداً من رسول الله يتلو على
المسلمين في الموسم صدراً من سورة (براءة) فلا يحج بعد العام

مشارك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

ومن ثم لم يعد للمشركين بمكة مقام « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وتتماقب الوفود ولها من بعد حديث .

ثم أذن رسول الله في القبائل بالحج الأكبر . وسار المسلمون في الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة من الهجرة وقد تجمع له مائة ألف مسلم من شبه الجزيرة مقطعين إلى بيت الله الحرام ، ملبين محرمين . فلما أن اجتمعوا في عرفات خطبهم رسول الله خطبته الجامعة « وأنزل الله قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي . ورضيت لكم الإسلام ديناً » فلما سمعها أبا بكر أنشج يبكي والرسول بناديه أن على رسلك يا أبا بكر . وقد وعى الحصيف الذكي أن رسالة النبي قد تمت وأن يوم لقاء ربه قد دنى .

ورجع رسول الله إلى المدينة بعد أن أنعم الله عليه بنعمة الحج الأكبر ، وبعد أن شهدت هذه الأفواج الضخمة معه هذا الموسم «

وأخذ يمدّ العدة لغزو الروم ، وجعل أسامة بن زيد على رأس الجيش ، وخرج أسامة إلى الجرف يتجهز وأصحابه . وإذا برسول الله يمرض فيطول مرضه ويضطرب الأمر بالمسلمين ، ثم ينتقل إلى بيت عائشة ، وتشدد به الحمى ، ويخرج إلى المسجد معصبا ويقول للناس . إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختر ما عند الله . إني لا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عندي وأكرم يداً من أبي بكر . وإني لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا « انفذوا بمثـ أسامة » .

يامعشر المهاجرين استقوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وأنهم كانوا عييتى التى آويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم . «

ثم ثقل به المرض وقال : مروا أبا بكر فليصلى بالناس .

ولما سمع صر يكبر بصوته الجهير ، قال : فأين أبو بكر . يابى الله ذلك والمسلمون .

وقالت فاطمة لما اشتد به المرض : واكرب أبتاه . فقال :
لا كرب على أبيك بعد اليوم .

ثم جاء وعد الله . ووعد الحق . فكان يرفع رأسه ويقول :
اللهم أعني على سكرات الموت

وشخص يبصره وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

وقالت عائشة : خیرت فاخترت والذي بعثك بالحق .

ولحق رسول الله بالرفيق الأعلى وجاء أبا بكر فنظر إلى وجه
رسول الله وهو مسجى في برده وقبله : وقال :

يا بني أنت وأمي يا رسول الله . ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً .

صورة وصفية

كان رسول الله متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ،
ليست له راحة . لا يتكلم عن غير حاجة . طویل السكوت
وكان سكوته على أربع . الحلم والهدر والتقدير والتفكير .
يخطو تكفؤا ويمشي هونا . إذا التفت التفت جميعاً .
خافض الطرف . أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره على
وجه أحد .

إذا أشار أشار بكفه كلها . وإذا تعجب قلبها . وإذا
تحدث اتصل بها وضرب بابها به اليمنى وراحته اليسرى .
وإذا غضب اعترض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه . جل
ضحكه التيسم . ويفتر عن مثل حب الغمام .

يسرع في مشيته . يرفع يديه حين يدعو حتى يعرى
بياض إبطه . يتلفت بكل جسمه ، يغضب كأنما يفتقأ
في وجهه حب الرمان ، ينام وقلبه مستيقظ .

الانسان الكامل

جمع الله لهذه الشخصية من كريم التورث . ومن بليغ الموهبة . ومن فيض الوحي والهدى ما جعلها الشخصية الأولى في تاريخ الإنسانية .

« محمد بن عبد الله » هو أنموذج الإنسان الكامل . ورسالته مثال رفيع في الخير والجمال والحق للعالمين جميعا . ومنذ برغ فجر هذه الرسالة وأذن صلى الله عليه وسلم بها . وأمره وأمرها متصل بكل أحداث الدنيا وتقلباتها في الشرق والغرب .

كانت البشرية قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم تمضي في طريق قد طال والتوى وأغلس . فما أن أرسله الحق بالحق اعتدل هذا الطريق واستوى وأضاء . وارتقت البشرية به ، ويدعونه مرتبة أخرى إلى الإنسانية . ومن ذلك اليوم إلى اليوم ، وإلى الغد البعيد ستظل الإنسانية كلما التوى بها الطرق أودجى أو أصابتها الحيرة تلتبس في تاريخه وهديه ورسالته النور والخير والحق .

وتلتهمس الأمم والشعوب تجارب أمة تكونت في ربع قرن وسيطرت على الدنيا في أقل من قرن .

يلتمس الزعماء تجارب القائد ، الذي ساس القبائل فصرف عنها وحشية الجاهلية . وأمدّها بالإيمان والعدل ، يلتمس طلاب الرجولة والعزة وتكامل الشخصية الإنسانية ، كل صفات الحب والوفاء والصدق والقوة في شمائله وتصرفاته .

هذه الحياة القصيرة في عدد سنّها ، والتي لم تتجاوز منذ البعث أربع وعشرين عاما من أعوام الناس ، وقد غيرت وجه العالم تغييراً لا يزال له جدته ، تزيد القرون المتوالية قوة وامتداداً وتزداد به الدنيا افتقاراً وإيماناً .

غيرت حياة محمد ودعوته مقاييس الحياة ، وعدلت اتجاه البشرية . وأمدت البشرية بفيضها الإنساني الضخم الذي ما يزال يدفعها إلى اليوم ، وإلى الأجيال الطويلة المدى من بعد نحو الحق والخير .

ولا شك أن حياة محمد بن عبد الله قبل أن يأذن الله له بالرسالة ، كانت حياة « إنسانية » تمتاز عن حيوات من حوله بالنقاء

والعزلة ، ولا يحفظ التاريخ له فيها نشاطا أو حركة أو أثرا ،
ولكنها كانت على كل حال حياة غريبة أشد الغرابة في جنوحها
عن الاضطراب في هذه البيئة الوثنية الحمقاء . كانت مزيجا من
الأمانة والاعتكاف ، وكانت صورة من الترقب والانتظار ،
وكانت النفس الصافية الطاهرة العفة التي اصطنمها الله لنفسه ،
وصنمها على عينه ، وقد تكاملت وأعدت . ونشأت كالزهرة
العاطرة من الأصل الطاهر العف . بين هذه الأنفاس المحرقة
من الضلال والإثم كما بنبت الورد من الأشواك .

هذه هي النفس التي أعدها الحق لتطوى صفحة الظلم
والضلال وتشر صفحة النور والتوحيد .

وتقوم حياته قبل بعثه على مواقف أربعة : الرحلة والتجارة .
والأمانة والذكاء . وحرب الفجار . وحلف الفضول .

أما الرحلة والتجارة فهما مرتبطتان يجممان بين معرفة الناس
والبلاد والابتلاء بأخلاق الناس وطبائهم . والقدرة في الحكم
على الأمور . وسداد التقدير للتصرفات ، والفهم للاوضاع . وتلك
عدة أصحاب الرسالات في فهم طبائع الناس واكتناء سرائرهم
ودراسة نفسياتهم .

وقد برزت نتائج هذه « الدعامات » في حياته بعد الدعوة بأجلى معانيها فقد عرف بالفراصة النافذة والفهم الدقيق لما يدور في خواطر الناس . وعرف بالقدرة على سير أغوارهم واكتناه دخائهم ، أليس هو الفائل : الناس كإبل ، المائة لا تجد فيها راحلة .

أليس هو الذى كان يخاطب كل قبيلة بلمجتها ولسانها . أليس هو القائل : خاطبوا الناس على قدر عقولهم . وما ينهضون به من أمور

وقد عرف بالاستنتاج اللامح وسرعة البديهة ومعرفة أقدار الناس ، وما يصلحون له وما يحسنون أدائه .



أما الأمانة والذكاء فهما عدة المصلح وقائد الرأى يكون بهما محبوباً مهيباً . الأمانة مبعث الحب والذكاء مبعث الهابة .

وقد برز هذا المعنى في حياته جلياً واضحاً يوم حكته القبائل المختلفة على نفسها فى أمر الحجر الأسود ، وقالوا : نحكم لأول قادم . فلما أشرف . قالوا : هذا هو الأمين . قد رضينا به حكماً . فحكم لهم فى أمر الحجر بما أَرْضاهم ، وصرف خصومهم فى مرة

خاطر ، وحضور بديهة ، وتصريف للامر . عجزت عنه هذه القبائل مجتمعة . وعجز عنه كل زعيم من زعمائها منفرداً .

واشترك محمد قبل البعثة في حرب الفجار : وقد عرف عنه أنه كان في أول هذه الحرب التي امتدت أكثر من ثلاث أعوام يحمل السهام إلى أعمامه بعد أن يجمعها من مساقط العدو ، ثم أتبعه أن يشترك بعد في إلقاتها وقذف أعدائه بها .

واشترك في « حلف الفضول » الذي تعاهدت فيه قريش على نصره المظلوم حتى يؤدي حقه ، وكان يذكره فيقول : ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حجر النعم ولو دعيت به لأجبت » وهذه الركنة الرابعة تمثل جانب الوفاء والإخلاص ، الذي أخذ صبغته العلمية يوم بركت القصواء في ثنية المزار بالحديبية فقال : إنما حبسها حابس الغيل عن مكه ، لا تدهوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . . . » .

وهكذا يتبين أن فترة ما قبل البعثة في حياة محمد — وهي الفترة التي امتدت منذ وعى الصبا الذي يبرز ويتكامل —

عادة — فى سن الخامسة عشرة . وينتقل بأدوار الشباب والفتوة إلى الرجولة على حدود الأربعين ، فى هذه الفترة برزت دعائم السكالم فى شخصيته الإنسانية على وجهها الممتاز .

خبرة ودراسة للناس من الرحلة والتجارة . وإعجاب وتقدير من للذكاء والأمانة . وجهاد ونضال ودربة على الحرب والقتال ، ثم وفاء ونجدة .

ولو لم يكن فى حياته قبل البمثة غير هذه الدعائم الأربع لسكفاهها دليل على إرهابات الشخصية الممتازة التى تنأهب لقيادة الإنسانية وعلامم الرجولة السكاملة التى تنأهل لحل رسالة إصلاحية عظمي . والذى تأتى من بعد بالأعاجيب مما يصل إلى ذروة المثل العليا التى تظل نبراساً يحتذى على طول الزمان .

• • •

تلك « علامات » الرجل قبل الدعوة .

وهذه « مظاهر » محمد الإنسان : صاحب الرسالة والوحى والصالح الاجتماعى .

برز فى نواحى البطولة . وأخذت الرسالة مجامع قلبه . فأنفق فيها وقته وحياته وهاش لها .

برز في الرجولة والعبادة والمشاركة الوجدانية والاجتماعية .
وبرز في السياسة والقيادة الحربية والزعامة الشعبية .

استثنى على رأس الأربعين : سن الرجولة والسكال ، كي
لا تطنى الرسالة على جوانبه الإنسانية . ولا يسلبه الوحي
خصائصه الشخصية .

جمع الله له الوحي الرباني والاجتهاد الإنساني .

اصطنعه الله للدعوة . فماش لها ولم يأخذ عليها أجراً « قل
لأسألكم عليه أجراً » .

عمل بيده فلم يمش كلاً . وتزوج فنفى عن دعوته الرهبانية ،
أوتى صفاء الذهن . واعتدال المزاج إلى قوة الجسم وحسن الهيئة .
جمع الله له بين الثقة بالنفس . والشجاعة . والتواضع . وقوة
البيان وظاهره بعد ذلك بالوحي وتأيد السماء .

أعطاه الله خمسا لم تعط لنبي من قبله « نصرت بالرعب مسيرة
شهر ، وجملت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأبما رجل من أتى
أدركته الصلاة فليصل . وأحملت لي الغنائم ولم تحل لأحد من

قبلي ، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يرسل لأهله خاصة وأرسلت إلى الناس كافة .

وجمع الله له بين اليتيم والفقر فصرف عنه بهما شر الترف الذي يحطم عزائم الرجال ، وجعله مثلاً للفقراء فلا يرون في الغنى مقياساً لمرضاة الله . وعافاه من تدليل الطفولة وشوائب الثراء . ولطالما قال : اللهم ارزقني كفافاً . وارزق آل محمد كفافاً . اللهم أحيى مسكيناً وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين . وقال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة .

اصطفاه الله ، وأمر المسلمين بالصلاة عليه ، وأخذ العهد على الأنبياء بالإيمان به ونصرته . وأقسم الحق تبارك وتعالى بحياته : « لعمرى إنهم لى سكرتهم يعمهون » .

• • •

وكانت الهجرة فيصلا بين الواقع المرير لثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والنضال والمقاومة ، وبين حاضر جديد تأذن الله فيه للمجاهدين بأنهم ظلوا وأن الله على نصرهم لقدير .

إن فى الهجرة وحدها « شمائل » لمحمد تزهو على الفاريخ ،

وما طوت صفحاته من أحداث البطولة . وأن في بقاء الرسول بمكة بعد أن أذن لأصحابه بالهجرة ، ويرقب جموعهم وهي تنحدر إلى الشمال فتعصى في غفلات الليل ، وتحت أجنحة الظلام تطوى هذه القفار لا تبالي ما تلاقى من آلام السرى ومتاعب الاختفاء ولا تسأل عما تركت وراءها في مكة من أهل ، وما خلفت من أبناء أو أموال ، وهي فرحة مشرقة يزيد بها هذا الفرح قوة على المضي إلى (يثرب) التي آوت ونصرت .

إن في بقاء الرسول في مكة حتى تنتهى هذه الأفواج إلى مقرها وحتى لا يبقى في مكة من المؤمنين المجاهدين إلا ثلاثة . لمثل من أمثلة القيادة الحازمة في رجولتها وشجاعتها وسبرها قل أن يدانى .

* * *

« قائد دعوة » يواجه الحصوم المتقاء بنفسه « من غير أنصار ، ويظل باقياً في مكة مقيماً لا يبرح حتى يسبقه كل أنصاره إلى المدينة . وهو لا يمضي حتى يطمئن إلى أنه قد أسلم الكتيبة المؤمنة إلى مكانها المأمون .

إن حادث الهجرة هو المرحلة الثانية للدعوة الإسلامية

انتقلت به من الكلام والافتقار والصبر والاحمال والريث والترقب والمدارة والتقية ؛ إلى المكاشفة والمواجهة وإلى المقاومة والنضال وإلى بذل الدماء رخيصة في سبيل تركيز الراية ، وتوسيد النظام .

ولا يقل موقف النبي هذا في أول المرحلة الثانية ، من موقفه في أول المرحلة الأولى :

ذلك هو حادث الحوار بينه وبين عمه أبو طالب « حين أزعجه القوم بأمر دعوة الرسول ، وحين هاجت قريش وماجت ، وعندما انكشف بها ما وراء الدعوة من صراع بين باطلهم المتهاافت وحقه الخالد ، فجاءوا إليه يطلبون منه أن يضع حداً لأمر عهد » ويعرضون عليه العروض « ثم يهددونه أشد تهديد » وما يلبث أبو طالب أن يسمي إلى رسول الله يتحدث به وهو يظن أنه سينال منه ما يريد ، وأنه بالغ أعماق نفسه بما يلقي إليه حتى ليقول له في ختام كلامه : « إن قومك اندرونى فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

وتقف الدنيا كلها في خشوع ورهبة تنتظر ما يقول النبي

ويقول محمد : «والله ياعم ، لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري على أن أدع هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ما تركته » .

وينظر أبو طالب إلى رسول الله فتأخذه الرهبة وتنزع هذه الألفاظ القوية الصادقة كل أثر في نفسه مما قالت له قريش .
فابلث أن يقول في حماس :

إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .
صلى الله عليه وسلم .

شہائل محل

« کأنه وهو فرد في جلالاته »

في عسكر حين تلقاء وفي حشم »

البوصيري

تسكملت الشخصية الإنسانية في شمائل عهد أوفى ماتت كامل

في إنسان . وبرزت فيه « الرجولة » التي تتسم بالزهد والتقواضع والشجاعة والوفاء ، وعرف بالربانية المؤمنة . فكان « عابداً » يقف بين يدي مولا حتى تقورم قدماه . وكان « اجتماعياً » شارك الناس في سرائهم وضرائهم وأحبههم وسهر عليهم اخوة وأتباعا ، أزواجاً وأبناء ، في إثارة ووفاء .

وعرف بالزعامة فكان مصلحاً جمع إلى ضبط النفس قوة التأثير . وكان فعالاً أكثر منه قوالاً . لم يستغفل في مكيدة . ولم ينم عن مهمته لحظة من ليل أو نهار . واتسم بالسياسة فكان مثلاً للسكياسة والدهاء دون تكبر أو طغيان . فعمد المعاهدات وبعث البعث .

وكان قائداً عرف بالبطولة الحربية والشجاعة فقاتل بيده ، وكان إذا اشتد اليأس أقرب الناس إلى العدو .

ووصل إلى ذروة البلاغة في القول فكان « محدثاً »

بارعاً فصيح اللسان واضح البيان . يقول أوضح القول في أوجز
عبارة .

وبهذه الشمائل جميعاً كان المثل الكامل للشخصية الإنسانية
الفردية ، وكان المثل الأعلى للزعامة والقيادة في سيرته وشمائله يجد
الزعماء والمحاربون والساسة والفكرون عنده خلاصة الدراسات
التجريبية للإنسان الكامل .

١ - الرجل

اتسم بالزهد في الدنيا . واكتفاه بالقليل . ولكنه ليس
زهد الضعفاء . أو زهد المعجز والقصور . وإنما زهد السالك
فيما يملك ابتغاء مرضاة الله .

وقد أتر عنه قوله : مالى وللدنيا . إنما أنا والدنيا كراكب
استظل بظل شجرة ثم مضى وتركها .

ولقد أتر عنه أنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير
وكان يرضى بالكفاف في الأكل والغليظ في اللبس . وينام على
وسادة آدم حشوها ليف . بحسبه بضع لقيات يقمن أوده .
وأحياناً بيت طاوياً ، وكثيراً ما قضى وأهله الأيام ليس لهم طعام
إلا الخبز والماء .

قالت عائشة لمروة : يا ابن أخي إننا كنا ننظر الهلال ثم
الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ما أوقدت في بيت رسول الله نار .
فقال يا خالة : ما كان عيشكم . قالت : التمر والماء .

وقد روى أنه ما أكل أكلتين في يوم واحد ، إلا كانت أحداهما
تمرّاً وما شبع عن خبز الشعير يومين متتالين ، وكان مع ذلك كله
يعظم النعمة « وإن دقت ولا يذم شيئاً » .

ويقول : إنما أنا عبد آكل كل كذا يأكل العبد ، وأجاس كما
يجلس العبد .

هذه هي الزعامة الفقيرة والقيادة التي لا تقيم سلطانها
وصولجانها على دعائم واهية من المظاهر البراقة ولا تقيم مآدبها
وولائمها على الوان الأطعمة المختلفة .

وحياة الرسول لم تكن في الواقع حياة فردية ، وإنما هي
حياة توجيهية تقضى بالأمر على وجه من وجوهه « لأنها تريد
أن تكون وضعاً من أوضاع السكّان الإنساني في الجماعة
الإسلامية .

ولذلك عرف في عبارته روح التوجيه والتنفيذ « ولم يكن
هذا « الفقر » أو هذا « القصد » في أمر الطعام والملبس وفراش
النوم إلّا رغبة في إقرار طبيعة خشنة صاعدة ، لا يزعمها نقص
أمور الطعام والمشرب والملبس في ظرف من الظروف .

وكان إلى هذا القصد متميزاً بالجود والسخاء . أضاف إلى ذلك روح المحاسبة والتقدير التي تبرز عند استقبال مطعم شهى .

دخل المسجد فوجد أبا بكر وعمر فقال . ما أخرجكما . قالا : الجوع . فقال رسول الله : وأنا أخرجني الجوع . فذهبوا إلى أبي الهيثم التيهان الأنصارى . فقام فذبح لهم شاة واستعذب لهم ماء . ثم أتى بذلك الطعام والماء فأكلوا منه وشربوا .

فقال رسول الله : لتسئلن عن نعيم هذا اليوم . قال هذا ومع ذلك فإنه لم يمتنع عن رد سبایا هوازن وكانوا ستة آلاف .

وكان طعام النبي ليلة عرسه من أم سلمة لا يزيد عن شيء من الشمير أخذته أم سلمة فطحنه ثم عقدته في البرمة ، وأخذت الكعبة فأدمته .

وعن أنس رضي الله عنه أنه أهدى إلى رسول الله طبق من رطب فجثا على ركبتيه . فأخذ يناولني قبضة قبضة يرسل بها إلى نسائه ، وأخذ قبضة منها فأكلها ، وأخذ يلقي النوى بثمالة فمرت به داجنة فناولها فأكلت .

ويقول : أخفت في الله وما يخاف أحد . وأوذيت في الله

وما يؤذى أحد . « لقد أتت على ثلاثون ما بين يوم وليلة . مالى
ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه أبطل بلال .

ومن حديث الطعام عند رسول الله عبرة أخرى فهذا هو بيت
على الطوى . ويربط بطنه من الجوع ويصبح الصباح فيسأل أهله :
أعندكم شيء . فإن قالوا : لا صام بومه .

ولقد جاءه الضيف فأرسل يسأل في بيوت زوجاته التسع ،
فلم يجد عند إحداها شيئاً ، فوكل أمره إلى أصحابه . ولقد ضاقت
زوجات النبي بهذا الوضع ، وطلبن النفقة فنزل القرآن يفصلهن
المقام مع رسول الله ﷺ إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها
فتمالين أمتعن وأمرحكن سراحاً جميلاً » والمتاع هنا هو متاع
الطلاق .

تلك أولى دعائم الرجولة عند النبي ، لم يكن للطعام والشراب
عنده ذلك الخطر الذى يعطية الناس إياه فيتحكم فى أقدارهم .

واتسم باليسر والبساطة فى لقاء الأمور » وفى توجيهها .

إذا خير بين أمرين أيسرهما مالم يكن إثماً . يمزح ويتفكه
ولا يقول إلا حقاً .

ولقد برزت بساطته في كل شيء . فقد كان الرسول يذهب
إلى السوق ويحمل بضاعته . وكان إذا تصدق وضع الصدقة في يد
السائل ، وكان يركب ويردف خلفه .

وجاءه الرجل وهو يمشي ومعه دابته . فقال للنبي : اركب .
وتأخر عن حماله . فقال الرسول له : أنت أحق بصدر دابتك
منى إلا أن تجعله لى . فلما قال له الرجل إني جعلته لك ركب .
وليست هذه البساطة واليسر إلا مظهرأ صادقاً من مظاهر
التواضع فقد عرف الرسول بتلطفه مع الأطفال والصغار . وعرف
بالصبر على الجفوة للغريب في منطقته ومسأله . ولم يكن تبعاً لذلك
بواجه أحداً بما يكره . ويجيب دعوة الداعى ، ويمود المريض ،
ويقبل المذنب ويتجاوز عن السيئ . وله في كل حالة من هذه
الحالات أحداث تروى . وليس له فيها كلام يقال . فقد كانت حياته
تجريبية وأهدافه توجيهية وأسلوبه تنفيذياً محضاً .

يمطى من منحه ويصل من قطعه ويبذل لمن حرمه ، ويفضى
طرفه عن الأذى . وكان أجود من الريح المرسلة

قال له أحد الوافدين : أنت سيدنا . قال السيد الله : قولوا
قولكم ولا تستجربكم الشيطان .

إذا أقبل جلس حيث ينتهي به المجلس ، وكان يمد طرف
ردائه الحليمة لتجلس عليه . ويلقى وسادته لضيغه ، ويجلس ، هو
على الأرض . وكانت له حصير يحجزه في الليل ، فيصل فيه ،
ويدسه بالنهار فيجلس عليه .

ذلك هو محمد الذي لم تعرف عنه مهانة ولا جفاء ، بل الدماثة
واليسر ، جبل على الخلق الكريم بالهبة الإلهية ، والرياضة النفسية ،
يحلب شانه ويخفف نمله ، ويجب التيمن في كل شيء ، في طهوره
وفي رجله وفي تنقله .



دخل عليه الرجل يرجف فقال له خفض عليك . إنما أنا
ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

كان بيته حجرات واطئة ضيقة من اللبن • بينها حواجز
من جريد النخل .

وعرف بالتفكهه فلم يكن جهماً يحمل بضاعته وكان الناس
يظنون حمل البضاعة غورة .

وعرف بتلطفه مع الأطفال وكان يدمع لموتهم ويقول : إنما
هي رحمة يضعها الله في قلب من يشاء من عباده .

يكره التميز والترفع عن أصحابه وأتباعه ، فلم يكن يعرفه
الغريب الوافد إلى المسجد حتى يسأل عنه

عرف قدره كل من عرفه . عندما دخل المسجد والقبائل
مختلفة قالوا هذا الأمين . وعندما وقف على الصفا قال : لو اخبرتم
أن خيلاً بسفح هذا الوادي تجري أكنتم مصدق . قالوا : ما
جربنا عليك كذبا .

وقالت له السيدة « خديجة » عندما فجأه الحق في غار حراء
فقفل ترجف بوادره : « والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل
الرحم وتحمل السكل وتكسب المدوم وتقري الضعيف . وتمين
على نوائب الحق . »

ولم يغضب رسول الله إلا للحق . وما غضب لنفسه مرة ولا
انتصر لها وعند ما غضب على السيدة عائشة بعد أن استأمنها على

العبد فهرب منها وقال لها : قطع الله يدك . عاد فرفع يده إلى السماء ودعا ربه : اللهم انى بشر أغضب وآسف كما يغضب البشر فأيما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعها له رحمة .

لم يعرف عنه قط الغضب فى أمر من أمور نفسه . ولم يرغبها إلا فى قليل من الأمر . غضب يوم مقتل حمزة ، وغضب يوم عاد من حنين ، وأخذ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفوا رداؤه فوقف وقال : أعطونى ردائى فلو كان لى عدد هذه الفضاء نما ، لقسمته بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا .

وهو فى غضبه يملك تمبيره فلا ينفات منه الكلام : غضب يوم حبس عثمان . ووقف تحت شجرة الرضوان وقال : بايمونى على أن نناجز القوم !

وكان غضبه عليه السلام فيما يتصل بالدعوة لا فيما يتصل بشخصه الكريم ، لم يغضب على الرجل الذى قال له : يا محمد أقض حق فانتم معاشر بنى عبد المطلب مطل ، ولم يغضب حين جذبه الإعرابى من برده النجرانى الغليظ الحاشية حتى أثر فى عنقه الشريف .

ولم يغضب من الرجل الذي قال له بعد عطية اعطاه أباها :
هل أحسنت إليك قال : لا . ولا أجلت .

وكان يقوئاً ليزول غضبه ، ويجلس إذا كان قائماً ، ويقوم
إذا كان قاعداً . ويوصى بذلك .

وعرف إلى ذلك كله بالرحمة التي لا تقتصر على بني الإنسان
فحسب ، بل التي تشمل كل حي .

مر وهو في طريقه إلى فتح مكة على كابه تهر على أولادها ،
وهن من حولها يسترضنها ، فأمر جميل بن سراقه أن يقوم
حذاءها حتى ير الجيش فلا يمرض لها أحد .

وبكى يوم مات إبراهيم وقال : يا إبراهيم انا لن نفنى بعنك
من الله شيئاً . وانا يا ابراهيم لحزونون تبكى المين ويحزن القلب
ولا تقول ما يسخط الرب .

وكان . في كل أمره وحاله . مشرق الروح موصل القلب
بربه ، يقول ابن شهاب : أن النبي كان يأتي له بالباكورة من

الفاكهة أو غيرها فيقبلها ويضعها على عينيه ويقول : « اللهم كما أرينا أوله فأرنا آخره » .

وكان لا يزعجه الأمر الجلل لثقتة بربه ، رمى الكفار التراب على رأسه الشريف فدخل إلى بيته . وأخذت قاطمة تغسله عنه وهي تبكي وهو يقول : لا تبكي يا بنية . إن الله مانع أباك .

وكان يمرف من أمره ، خطأ وصوابه ، فلا يرى مندفعاً في اتجاه أو رأى دون أن يراجع نفسه المرة بعد المرة .

قال في حجة الوداع : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى ، وقال في عمرة القضاء : فعلت اليوم أمراً ليتني لم أفعله ، دخلت البيت فمسي الرجل من أمي لا يقدر أن يدخله ، فيكون في نفسه حزازة ، وإنما أمرنا بالطواف ولم نؤمر بالدخول .

وكان إلى ذلك كله ، نظيفاً جميل الملبس ، لا يرى إلا في أكل مظهر ، فلما سئل في ذلك قال : إن الله يحب من أحكم إذا خرج لآخوانه أن يعجمل لهم .

ويقول أحد أصحاب الرسول ، اننا كنا نعرف خروج النبي
روح الطيب .

ويقول انس بن مالك صحبت رسول الله عشر سنين وشممت
المطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهة رسول الله ، مارأيت
شيئاً أحسن من النبي ، ومارأيت أحداً أسرع في مشيته من
النبي ، كأن الأرض تطوى له ، وانا لنجهد وهو غير مكترث .

ولم يبلغ إنسان ولا زعيم نهاية الوفاء كما بلغه رسول الله حين
نادى في الناس قبل أن يقبض : أيها الناس من كنت جللت له
ظهراً فهذا ظهري فليقتد مني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا
عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا فهذا مالي فليأخذ منه ،
ولا يخشى الشجناء فهي ليست من شأني .

ولمقد جاهد رسول الله في سبيل رزقه قبل الدعوة بالتجارة ،
ثم عاش في مال زوجته خديجة بعد البعثة ينفقه في الدعوة ، ثم
يسر الله له الأمر من بعد فأثر عند قوله « وجعل رزقي تحت
ظل رمحي » .

٢ - العابد

« قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » .

لم تجتمع في مصباح ولا قائد هذه الصفات التي تجتمعت في محمد فقد كان صلى الله عليه وسلم نموذجاً صادقاً كاملاً للرسالة التي أرسل بها ، فكان عابداً يقوم الليل حتى تتورم قدماءه . وبصوم من الشهر حتى يكاد لا يفطر .

ويقول إن لبدنك عليك حقاً . ولربك عليك حقاً . ولأهلك عليك حقاً . . وهي حقوق منفصلة لا يغفل في توزيعها ولا يجوز حق منها على الآخر .

وقد وصل « محمد » في جانب (العبادة) إلى أرقى درجات العباد المؤمنين حتى لقنهم عيناه ولا ينام قلبه . وإذا نام يوقظون حتى يكون هو الذي يستيقظ ، وقد ملكت عليه الدعوة حواسه وقلبه فصبر على الجاهل والمتمنت .

ومن خشيته لربه وشدة خوفه من عظمته نسب كل شيء إليه ووصل نفسه به في كل أمره . وكل حركاته . يذكره عندما يستيقظ وعندما ينام . وعندما يعيش . وعندما يخرج من منزله . وعندما يدخل المسجد وعندما يعود . وعندما يسافر وعندما يرجع ، وعندما يلبس .

قام الليل حتى تفطرت قدماء . وقد سئل لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً . فإذا صلى بالناس خفف صلاته حتى تكون أخف صلاة . فإذا صلى بنفسه أطال صلاته . ويقول عبد الله بن مسعود : « صليت مع النبي ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء . قيل وما هممت ؟ قال هممت أن أجلس وأدعه .

ويقول عبد الله حذيفة بن اليمان : « صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح بالبقرة . فقلت : يركع بعد المائة . ثم مضى . فقلت : يصلي بها في ركعة . فمضى فقلت : يركع بها . ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مرسلات فإذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل . وإذا مر بتعوذ تعوذ . ثم ركع

فجمل يقول : سبحان ربى العظيم . فكان ركوعه نحواً من قيامه .
ثم قال : سمع الله لمن حمده . ربنا لك الحمد . ثم قام قياماً طويلاً
قريباً مما ركع . ثم سجد فقال : سبحان ربى الأعلى . فكان
سجوده قريباً من قيامه « رواه مسلم » .

ويصلى رسول الله لربه ويقوم الليل إلا قليلاً . وإذا حزبه
أمر أكثر من الصلاة . وإذا جاءه من يطلب شيئاً قصر
من صلاته .

وهو صلى الله عليه وسلم يعرف قدر ربه . فيقول : شيتنى هود
واخوانها ويربط كل من له صلة به ، بموقفه منه عند ربه فيقول :
يا فاطمة بنت محمد سألنى ما شئت من مالى . لا أغنى عنك من الله
شيئاً « ويشق بالله فى مواطن الشدة والبأس . فلا تغره المظاهر .
يقول له أبوبكر وهو فى الغار : لو نظروا تحت أقدامهم يارسول الله
لأونا فيقول : يا أبابكر . ما ظنك باثنين الله ثالثهما . . لا تحزن
إن الله معنا .

ويشكر ربه فى مواطن النصر ، فيدخل مكة ساجداً على

بميريه ، وهو يردد : لا إله إلا الله . نصر عبده وعز جنده وخذل
الأحزاب وحده .

ويعود من السفر أو الغزوة فينتجه إلى المسجد فيصلي لله
ركعتين قبل أن يدخل منزله .

ويذكر ربه في كل حال . فإذا عاد من السفر كبر على كل
شرف . وقال : تائبون آييون . إن شاء الله حامدون . ربنا
عابدون . أعوذ بالله من وعناء السفر وكآبة المنقاب وسوء المنظر
في الأهل والمال والولد .

وإذا خرج إذا السفر قال : اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة
في الأهل . وإلى بني مسجده ارتجز :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة
وإذا حفر الخندق ارتجز :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأتران سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وإذا رأى المطارق قال : اللهم صيباً نافعاً . وإذا خاف ضرره قال
اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على الآكام والآجام والظراب والأودية
ومنايات الشجر .

وإذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا
بمذابك . وإذا رأى الهلال قال : الله أكبر . اللهم أهله علينا باليمن
والإيمان والسلامة والسلام . ربى وربك الله . هلال خير ورشد .

ويقول للمسافر : استودع الله دينك وأمانتك وخوانيم أعمالك .
وإذا سرى بالليل مسافراً قال : اللهم اطر له الأرض وهون
عليه السفر .

قال جابر بن عبد الله : إن الرسول كان يعلمنا الاستخارة
في الأمور وإذا رأى ما يحب قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم
الصالحات . وإذا رأى وجهه فى المرأة قال : اللهم أنت أحسنت
خلقى فأحسن خلقى وحرم وجهى على النار . وإذا قال له إنسان
« إني أحبك » قال « أحبك الذى أحببتنى له » وإذا أصبح قال :
أصبحنا وأصبح الملك لله . وإذا وقع له مالا يخشاه قال « قدر
الله وما شاء فعل » وإذا استصعب عليه شيء قال : اللهم لا سهل
إلا ما جماعته سهلاً وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً .

وإذا لبس الثوب قال : اللهم إني أسألك من خيره ومن
خير ما هو له . وأعوذ بك من شره ومن شر ما هو له .

وإذا خرج من منزله قال : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . وإذا قدم إليه الطعام قال : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وقنا عذاب النار » .

وإذا دخل فراشه قال : « بسم الله ربى وضعت جنبى وبك أرفعه » .

قال أبو حميد الساعدي « أنا كنت أحفظكم لصلاة رسول الله ، رأيتُهُ إذا كبر جعل يديه حذاء منكبيه ، وإذا رفع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره فإذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل قفار إلى مكانه فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة . فإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ، ونصب اليمنى . وإذا جلس في الركعة الأخيرة قدم رجله اليسرى ، ونصب الأخرى وقعد على مقعده » .

تلك صلاته . أما ضجاعه فهو آدم محشو ليفا . قيل ان عائشة كانت تفرش للنبي عباءه فجاء ليلة وقد ربمها فنام عليها فلما أصبح قال يا عائشة : ما افراشى الليلة ليس كما كان .

قالت يا رسول الله قد ربعتها لك . قال فأعيديه كما كان .
وفي رواية أنه منمنى من قيام الليل .

ومع هذا القدر الرفيع من العبادة والاتصال بالله فقد كان
يغضب ممن يجنحون إلى العزلة والانقطاع والرهبانية ، وقد عرف
غضبه ومعارضته لأحد أصحابه عندما مالت نفسه للعزلة في مغاره
بجانبها ماء وخضرة . وقال للذين مالوا إلى الرهبانية والانصراف
إلى العبادة : أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولسكنى أصوم
وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس
منى . وهو بهذا يجمع بين التبعيد لله حتى تكون قرة عينه
في الصلاة . وبين أداء حق الإنسان في الحياة .

وهكذا بلغ النبي ذروة الإيمان بالله والتوكل عليه ولم تكن
عبادته عبادة الرهبان أو الماكفين في المغاور والكهوف وإنما
عبادة الرجل القوي المتجهز للقاء العدو ، المراقب لحركاته ، الباث
عيونه في كل مكان لاستكناه أمره .

هي عبادة القوى لا عبادة الضعيف . يعرف ربه ويلجأ إليه
ومعه القوة والعدة . ويدعوه حتى يسقط ردائه وكتائبه مصطفة
للقاتل فلا تنسيه العدة والسلاح حسن الالتجاء إلى ربه .

٣ - الاجتماعى

برز «محمد» فى رجولته فكان مثلاً كاملاً ، يقتدى ويحتذى .
وكانت رجولته عملية توجيهية . وبلغ أرقى درجات التعمد والكنها
كانت عبادة القوى الوائى بربه المستمد بالعتاد . وليست عبادة
التواكل والعزلة .

والجانب الاجتماعى فيه ، فياض ضخم . تظهر فيه معالم
المشاركة الوجدانية . والإيثار والتواضع « حية نابضة بالقوة ،
فهو كزوج ووالد وقائد ترى فيه تلك البشاشة وذلك الأنس واللين .
عندما ذبحوا الشاة قال أحدهم على ساعها . وقال الآخر على
طبعها وقال النبى : وعلى جمع الخطب .

عمل مع الأجير والفاعل فى بناء مسجد المدينة . والخندق .
وتلك أعلى درجات المشاركة وهو الفنى برفيع مقامه بين أصحابه عن
أن يدعه أصحابه يعمل معهم . ولكنه كان يكره أن يتفضل عليهم .
ولقد امتنع عن قبول رأى على بن أبى طالب . ومرثد بن

أبى مرثد الغنوى فى أن يخرلا له عن حقهما فى المشى فى طريق بدر .
وعرف « بالتواضع » فكان يركب الحمار ويردف خلفه ويجلس
حيث ينتهى به المجلس . ويأكل مع خادمه ، ويركب الحمار
بالأسواق ويمتقل الشاة فيحملها . ويشرب آخر الناس : ويقول
ساقى القوم آخرهم شربا .

وكان يزور خادمه أنس فى بيته ويتعاطف معه فى القول .

وعرف بالإيثار فكان يوزع على أصحابه كل ما غلا من
الغنيمة ويقنع بالقليل والخشن . وبلغ فى ذلك غاية ما عرف من
الكبرم فإذا سأل أعطى كل ما يملك . وإذا سأل وهو معدم وعد
لم يزد . وأحيانا يأتيه الرجل وما عنده شئ فيقول له : اتبع على
فإذا جاءنا شئ « قضيناه . ويؤثر من يدخل عليه بوسادته ويجلس
على الأرض . وينعم بعبادته .

وبرز فى آداب المعاشرة واللياقة . ولطالما قال : إني لست
أرضى لكم ما أسخطه لفسى . ولم يفقه متفوق فى حسن مقابلته
للناس والاجتماع بهم . فهو يلتفت بوجهه وجسمه ويصنع تمام
الإصغاء ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع حديثه وإن طال .

ولا ينزع يده من يد محدته حتى يكون صاحبه هو الذى ينزعها ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه عنه . وكان يتحمل لإخوانه إذا خرج إليهم وإذا غاب أحد من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه .

ولم ير مقدما ركبته بين يدي جليس له . ويقول (أنس) خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط . وما قال لشيء صنمته لم صنمته . ولا لشيء تركته لم تركته . وتلك سجية الداعية والمصلح والنبي : يتألف الناس بهذا الطبع الكريم السمح وبهذا الحلم الوفير ، وقد جمع رسول الله إليه القلوب بهذه المشاركة لاتباعه والسمو على مصالحهم . وإشعارهم بقربهم إلى نفسه ومكانهم عنده .

ذلك جانب من عبقرية القيادة ونبوغها وتقديرها للاتباع وسياستهم باللين في مواضعه والشدة في أوقاتها حتى يستقيم الأمر ولا يفلت الزمام . وهو القائل « ما صاحب مسلم صاحب ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته يوم القيامة .

ولقد حرص على أن يكون اتصال الناس ببعضهم في أمر الماملات رفيقاً ليناً فيه عدالة وسلامة . ولقد غضب من عمر

عندما نهره الرجل الذى جاءه يطلب الرسول بدين عليه .

وقال له : أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج : أن تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء .

وتلك مزية الاجتماعى المطبوع والزعيم اللبق . يسبق حلمه غضبه ولا يزيد شدة الجهل من أحد عليه إلا حلاًماً .

وهو إلى ذلك مثالا للنظافة والتزين والتجمل . وقد أوصى بها . وقد أترعنه قوله : « اغسلوا ثيابكم . وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا . وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نسائهم » وفى هذه الحكمة ما فيها من دقة الملاحظة ، ومن رفعة الإسلام عن أوضاع بعض « المتخرفين » وحيلة الرقع والأدلاق .

وجمع محمد إلى هذا المعنى دقة الإحساس الاجتماعى فى صلة الرجل بزوجته فقال « إذا دخلت ليلاً (من السفر) فلا تدخل على أهلك حتى تستجد المغيبة : وتمشط الشعثة . الكيس الكيس ! » وتلك براعة الفاهم الحصيف لملاقات الرجل والمرأة . وأثر المفاجئات غير المتوقعة فى موقع المرأة من زوجها .

وهو لذلك كان حريصاً أن يقرع بين نسائه إذا خرج في سفر فأبها خرج سهمها خرج بها . حتى لا يفتضب إحداهن .

وقد تحرى المدل بين زوجاته إلى أبعد حدوده . وقال : اللهم هذا قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » .

وقد بلغ في هذه العاطفة الاجتماعية مع زوجاته إلى أن سابق عائشة فسبقته مرة وسبقها مرة أخرى .

ونفذت بصيرته الاجتماعية الفاضلة إلى أدق الأمور التي تقوم بين المرأة والرجل فأثر عنه أنه قال للمرأة التي تخن الجوارى يا أم حبيبة : إذا فعلت فلا تهكي فإنه أسرى للوجه » وأحظى عند الزوج ، ولم يمنع ذلك من أن زوجاته كن يراجعنه حتى يظل يومه غضباناً »

ولم يعب الرسول طعاماً قط ، إذا اشبهاء أكله وإذا كرهه تركه ، وأوصى بأن لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه وإذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث » ويسلم الراكب على الماشي ، والماشي على القاعد ، والقليل على الكثير » وأوصى في أمر الخدم والمبيد وصايا كريمة : هي أعموزج

للمشاركة الاجتماعية فقال : إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقمتين ، وقال هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تسكفوه من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم ،

وعندما أراد أنس أن يحمل له سراويله من السوق قال : إن صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .

وذلك المثل الذي ضربه محمد لابنته فاطمة حين جاءت تطلب خادماً مما اشتكت من الرحى وهو فيما يروى على « فجاء النبي فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم فقال على مكانيكما . حتى وجدت برد قدميه في صدري . فقال لأدلكما على خير مما سألتما . إذا أخذتم مضاجعكما فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين واحمداه ثلاثاً وثلاثين وكبراه أربعاً وثلاثين فإن ذلك خير مما سألتما . وفي رواية : « كيف أعطيكما وأترك أهل الصفة على ما هم عليه من الجوع » .

وهكذا يفهم محمد أمر المجتمع وينوص في أعماقه ويحل مشاكله .

٤ — القائد

برزت القيادة الحربية في عهد بعد أن فرض القتال ونزل أمر الله به « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير »

فرص القتال بعد الاستعداد والتأهب وبعد الهجرة وقد عرف عن الرسول من البراعة الحربية ما لا يزال مثلاً عالياً في العمل الحربي الذي يختذى ويبهز ويملاً النفس إيجاباً وتقديراً لهذه المقدرة النافذة في تصريف أمور الحرب وهي أخطر الأمور وأجلها

ولم يكن الرسول محباً للقتال أو راغباً فيه ولطالبا حرص على أن يحصل على أعظم النتائج بأقل التضحيات . ولم يكن يلجأ إلى الحرب إلا عندما تنفذ من بين يديه وسائل الدفاع جميعها . ولطالما قال المسلمون لا تتمنوا لقاء العدو . واسألوا الله العافية .

وبلغ ذروة الشجاعة فكان إذا اشتد الوطيس وحى البأس
واحمرت الحديق اتقى الناس برسول الله فإ يسكون أحد أقرب إلى
المدومنه .

وفر الناس من حوله يوم حنين وهو ثابت لا يريم كأنه الطود .
يهتف « أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب »

وعرض عليه الانتصار بالمشر كين . وهو في قلة وحاجة إلى
رجل واحد فأبى وقال : لا أنتصر بمشرك . وتلك عبرة القائد
الواثق بصدق دعوته ونصر ربه ، لا يستعجل الأمور ولا يزيد
بالناس وجاهة . وإنما يعرف أمره ويحصره في القلة من الصادقين .

وعرف بالشورى لأصحابه . لكنه عرف بالحزم

عندما لبس للمسلمين في أحد . وكان المسلمون قد رجعوا عن
رأيهم في الخروج إلى الاعتصام بالمدينة . فقال لهم في حزم : ما
ينبغي لنبي لبس لامته أن يضمها حتى يقاتل

حدد لكل أمر قدره وميعاده في أتران وحكمة . طلب إليه
أهل بيعة العقبة الكبرى أن يعملوا بأسيا فهم غداة البيعة على
أهل مكة . فقال لهم : لم نؤمر بقتال بعد .

عجم عيدان اتباعه ودرمن حضائصهم . وميزهم على قدر عزائمهم ، وأرسل على رؤوس السرايا رجال فيهم مناعة خاصة :

قال لعبد الله بن جحش عندما أرسله على رأس السرية : انى استعملتك على هؤلاء النفر فأمضى ، حتى إذا سرت ليلتين ، فأثّر كتابى ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض لأمرى فيمن اتبعك حتى تأتى بطن نخلة ترصد بها غير قریش

ثم قال لأصحاب عبد الله : انى استعملتكم عليكم لأنه أصبركم على الجوع والعطش

ولهذه الوصية معان أوامر مختومة تقضى فى أماكن معينة . ثم امتحان للرجال لا اكراه فيه . ثم تقدير للأمير فيه صفة خاصة من الصبر على الجوع والعطش . ثم عمل منظم .

وعرف عنه الكتمان والتورية والحيلة فى الحرب . كان إذا أراد جهة ورى بأخرى . وعندما تجهز لفتح مكة كسّم الأمر عن أقرب اثنين إليه : عائشة وأبو بكر . بث هيونته وأرصاده

في كل مكان فكان يعلم الأمور قبل أن تقرر . فيرسل قواته إلى من يدبرون له من الأمر قبل أن يتموه .

بلغ من حرصه من غدر قريش أن جهز مائة فارس في غمرة القضاء جعل على رأسهم محمد ابن سلمة . وبعثهم طائفة له على ألا يتخطوا حرم مكة .

عرف بالنظام والترتيب الحربي الدقيق . درب السريا وأرسلها فلما اشتد ساعدها تقدم بها إلى معركة ضخمة . وأرسل للجيش قائد وخليفة له . لو أصيب قائده . وثالث يخاف الثاني . وقال « أمير الناس زيد بن حارثة . فان قتل فجعفر بن أبي طالب ؛ فان قتل فعبد الله بن رواحة : وان قتل فلا يرتضي المسلمون منهم رجلا يجعلوه عليهم .

ويستعرض الجيش ويمرض المقاتلة ويسوى الصف وبرد صغار المحاربين » يخرج إلى الغزل فيستخلف على المدينة ويستخلف على الصلاة هذا لأمر الدنيا ، وذاك لأمر الدين .

وإذا غزا قوماً خرج في رجاله فلا يظهر وجهها ، وبغذ السير ولا يغير عليهم حتى يصبح ، فإن سمع آذاناً أمسك وإن لم يسمع أغار .

بلغت به البراعة الحربية والحاسة العسكرية مما لم تبلغ في قائد من قبل تفرد اقيادة الجيوش دون أن يكون له رسالة أو زعامة أو دعوة .

سأل عن المشركين يوم بدر ، فلم يعرف من سائله ما يريد ، فقال له : كم تذبجون ، قال يوماً تسماً ، ويوماً عشراً ، فاحرز أن القوم بين التسمائة والألف ، وعندما هزم المسلمون في أحد ، وفرت قريش ، قال : يأسعد اتبعهم فإن ركبوا الإبل فهو الظمن وإن ركبوا الخيل فهي الغارة .

كان قوام قيادته : الثقة بنصر الله ، والثقة بالنفس ، والتمرض للموت ، والبذل والفداء ، وكان من نتائج ذلك أنه أنتصر دائماً بالقليل من جنوده على الكثير من خصومه .

وكان شعاره : لا تتمنوا ، لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .
وكان يقاتل فلا يلتفت وراءه ، يقول : لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلاف سرية تفزوني سبيل الله ، ولوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ، ثم أقتل ، ثم أحيأ ، ثم أقتل .

لجأ إلى ربه في بدر حتى سقط رداؤه عن كتفيه ، ولما فتح مكة ورآها لا تقاوم ، استوقف كتابه ووقف على راحته وأنحنى لله شاكرًا .

ولما كان بالسكينة في فتح مكة بين الظهر والمصر ، أخذ إنشاء من ماء في يده حتى رآه السامعون ثم أفطر في تلك الساعة .
وقال إنكم مصبحوا عدوكم ، والفطر أقوى لكم .
وعنه أن قوماً صاموا ، فقال : أولئك العصاة !

وقد أوتى القدرة الكاملة على توجيه الأمور وتصريفها بما لم يؤت أحد ، وبما سجل التاريخ من صور لا تزال عدة المجاهد وسبيل النصر .

٥ - المحدث

وروى عن « محمد » جانب الكتابة لحكمة عليا سجلها القرآن في قوله : « ما كنت تتلوا قبله من كتاب ولا تحطه يمينك : إذا لارتاب المبطلون » وقد بلغ الرسول في أمر الخطابة والحديث مبلغاً أزرى بعضاء العرب وبلغائهم . لقد كانت بلاغة الرسول وقوة بيانه تختلف اختلافاً بينا عن بلاغة من سبقوه . ذلك لأنها لم تكن بلاغة الخطباء أو الشعراء أو المتشدقين بالكلام في حلق السكبة أو أسواق عكاظ أو المربد أو غيرها . وإنما كان كلامه كلام الداعية : المصلح صاحب الرسالة والمهدف . الذي لا يلقى القول على عواهنه . ولا يطلقه تفيهاً أو تطاولاً . أو استعلاءً على الناس . أو إبرازاً للقدرة البلاغية . وإنما كلام الحريص الدقيق . الذي يعرف ماذا يقول . والذي يضع كلامه في موضعه . فهو يوجه كلامه إلى أنصاره وخصومه على السواء . وله مع كل من هؤلاء أسلوب لا يتعدى الحق أو يخرج عنه . ولكن على كل حال كلام القائد الدقيق اليقظ .

ولقد عرف عنه حسن توجيه القول بحيث لا يجرح به إنساناً فهو يعممه ولا يخص به من يقصده . ويتبسط في القول فيقرب به من القلوب . ويلين لأصحابه وأتباعه في مواضع اللين . ويشدد على خصومه في مواقف الشدة وهو في هذا وذاك لا يعدو كلمة الحق .

وقد كان للحديث في دعوته مكاناً . فقد نشر كلمة الله بالإفناء وبلغ ذلك حداً بعيداً في السجال بين الرسول وبين اليهود في مكة . وقضى ثلاثة عشر عاماً وسلاحه القول والكلام . وأهل مكة . بل وجزيرة العرب كلها ، أهل لغة وبلاغة ولسان .

ولذلك كان الكلام سلاحه . والكلام المتميز بالسهولة والبساطة والألفاظ على قدور المعاني « وهو في هذا كله لا يخرج عن « السهل الممتنع » .

كان أسلوبه البلاغة في البساطة ، التي تقرب المعنى إلى الأذهان دون أن تبذل به . ومع ذلك فقد حرص الرسول على التذكير بسحر البيان وخطره فقال : « إن الله تعالى يفيض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل لسانه تخلل البقرة لسانها »

ويوصى بالكلام وخطره وأثره : فيقول : « من تعلم صرف الكلام ليستبي به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » ويقول : « وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم »

وحرص على استعمال القوة في مكانه ، حتى عرف عنه الصمت والقليل من الكلام . ومجافاة اللغو والتكرار .

وإذا خطب احمرت عيناه . ورفع صوته . واشتد غضبه . كأنه منذر جيش . وبعد عن المي والمعجز والقصور . وبلغ الذروة في وضوح الجواب ونصاعة الحجة . وفصاحة اللسان وإيجاز الكلام . وجزالة الألفاظ .

تقول عائشة : « ما كان رسول الله يسرد كسر دكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل لو عدّه العاد لأحصاه » .

وروى أنه كان يفتح الكلام ويختمه بأشداقه . ويتكلم بجوامع الكلم . فصلا لا فضول فيه ولا تقصير . ولا عجب في بلاغة الرسول ولا غرابة ، فقد سأله أبو بكر فقال : لقد طفت بالعرب وسمعت فصيحائهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟

قال محمد: « أدبني ربي فأحسن تأديبي . »

ولا عجب فيما يقوله أبو بكر فقد ولد الرسول في قريش ونشأ في بني سعد ، و نزل القرآن على لسانه فجمع بين جزالة البادية وبين القدرة على مخاطبة كل قبيلة بالهجتها . قحطائها وعدنائها . وحجازها وتهامها . ونجادهما .

وقد أوجز الجاحظ بلاغته وقدرته البيانية في عبارات رائعة فقال « ألقى الله على كلامه المحبة . وغشاه بالقبول . وجمع له من المهابة والحلاوة . وهو مع استغفائه على عاداته . وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم . ولا بارت له حجة . ولا قام له خصم . ولا ألجمه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير . ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم . ولا يحتج إلا بالصدق . ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعا . ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً من كلامه صلى الله عليه وسلم .

٦ - السياسي

اشتغل بالسياسة ، فأرسل الوفود وعقد المعاهدات والمهود ونظم الدولة . ووضع قواعد النظام الاجتماعي والقضائي وقام عليه . وبرز معنى الزعامة السياسية في شخصية الرسول برواً واضحاً « فقد أوتي من القوة والوجاهة واليقظة واللباقة والفراصة قدراً ليس بالقليل ولا بالمتوسط : وزاده تميزاً عصمة الله له وتوفيقه إياه .

ولقد وصف لذلك . بأن من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه وقد عرف بإحكام التصرف : وأعطى السكينة الباعثة على الهيبة ، وأمدّه الله بحسن القبول . فوافقته القلوب وانقادت له النفوس وجمع إلى ذلك صدق الفراسة ورجاحة العقل ، وحصة وافرة من الدهاء ، فما استغفل في مكيدة ولا استعجز في أمر .

وبلغ أعلى مرتبة بلغها زعيم سياسي ، فشهد له خصومه بالصدق والأمانة ورقى إلى أوفى درجة من الإشعاع النفسي والتأثير الروحي فاجتمع له الناس « المختلفون مزاجاً وخصالاً وتربية وثقافة .

واستطاع أن يحول الطبائع بعد أن وصلت إلى درجة الاستقرار ، فأصبحت عجينة مرنة سهلة التحول والتشكل بعد أن طال بها عهد الجاهلية بوراثياته وتفرضاته .

وقد كان يحذر الناس . ويحترس منهم ، من غير أن ينطوى لأحد منهم على سوء . يتنافل عما لا يشتهى . ولا يواجه أحداً بمكره .

ومنى بحفوة الإعراب ، فلم تقع منه بادرة . وما روى له التاريخ عثرة أو هفوة . وصل من الزعامة السكاملة إلى أبعد أطوارها وأعلى مدارجها .

ويروى أنه أوتى شجاعة موسى وشفقة هارون وصبر أيوب وإقدام داود . وعظمة سليمان وبساطة يحيى ورحمة عيسى .

وعرف بالتمكن في الصبر والثبات على الشدائد ، والقدرة على تجنب عواقب الأمور . والإعراض عن زخارف الدنيا : فقد زهد فيها واكتفى بالبلاغ منها . « وقال إننا معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقة .

تواضع للناس وهم أتباع ، وخفض جناحه للمؤمنين وبلغ به الحلم ونهاية الحكمة .

أحسن صحبة أعدائه ، وعنى بأمرهم فمعا عن أبوسفیان وجعل له في فتح مكة مكاناً يليق بزعامته ولم يسلبه إياها ، ولم يقبل مشورة عمر في قتل أبي بن سلول ، وكفنه بقميصه وصلى عليه . وقام أمره على الثقة بنصر الله وتأيدته ، وعلى الحذر المتصل ، واليقظة الكاملة ، ومع أنه بلغ مبلغه من الظفر والتمكن ، وظل ينام على الحصار حتى تؤثر في جنبه وليس في خزائنه إلا قبضة من شعير ، وبقي مكثفياً بالقليل من الطعام والخفيف من الثياب .

* * *

وبلغ ذروة الثقة بدعوته والإصرار على حقها ، فرفض قوله عمه وهو في أشد حالات الضعف ، لم يقبل المساومة ودعوته في حاجة إلى نصير واحد ، عرض عليه بنو شيبان عروضاً وكانوا يزيدون الالف ، فقال لهم : لقد قاتم فأحسنتم ورددتهم فأجلمتم الرد ولكن دين الله لا ينصره الا من حاطه من جميع نواحيه .

وبلغ ذروة الثقة بربه في نصر دعوته .

وعرف أمور الناس فقال : انزلوا الناس منازلهم . خياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام .

وفهم سرائر الناس وداراهم وأثر عنه قوله : إن الله أمرني بمداواة الناس . كما أمرني بالفرائض : وقوله : لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فاني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

ووهب القدرة على فهم الرجال والاتباع فوصفهم في المواضع التي يصلحون لها . جاءه أبو بصير مسلماً فردّه مع من جاء يأخذه فلما مضى قتل أبو بصير الرجل في الطريق ورجع إلى الرسول مخبراً بأمره . وأمر صاحبه . فلما انصرف وصفه بأنه مسمر حرب ، وقد تحققت فراسة الرسول في أبي بصير فانه لم يلبث أن كمن في الطريق بين مكة والمدينة واجتمع له الخارجون على مكة !

وأوتى الرسول القدرة على فهم بواطن الأمور . لما وصلت ناقته القصواء الحديدية . بركت . وظن المسلمون أنها جهدت . ولكن الرسول بما أوتى من قوة اكتناء بواطن الأمور قال :

« إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش إلى خطة
ليسالوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .. »

وأوتى العفو عند المقدرة عفا عن أهل مكة بعد أن قدر عليهم .
وصفح عن اضطراد ثلاثة عشر عاما . وعفا عن أهل الطائف بعد
أن ردوه رداً غير جميل وأعاد سبائا هوازن وكانت ستة آلاف .
وتألف قلوب بمض المسلمين بأضخم قدر من الهبة في أول غزاه
بعد فتح مكة .

وأوتى الشجاعة : فزع أهل المدينة فانطلق الناس يبحثون عن
الصوت فلقبهم الرسول راجما ، وقد سبقهم وابتدر الخبر على
فرس عرى ، والسيف في عنقه فاستقبلهم ذاهبين وهو راجع ،
فلما رآهم قال مطمئناً : ان تراعوا . لن تراعوا .

وظل في مكة بعد أن أذن لأصحابه في الهجرة حتى لم يبق غيره
غيره وغير صاحبه أبو بكر .

وقرب القلوب إليه فربط بينه وبين رجاله الأربع الأول
بالمصاهرة : تزوج بنتي الصديق والفاروق وزوج عثمان وعلى

وأوتى الصبر : فاحتمل مساءة قريش طويلاً . ودعا إلى الله فلم يسلم له في ثلاث سنوات إلا أربعين رجلاً .

لم يتمد في دعوته ولا في زعامته على الخوارق . وألظوا هراغيبه . فلما كسفت الشمس عند موت إبراهيم قال إنها من آيات الله ولا تنكسف لموت أحد ولا لحياته .

وعرف بالكياسة واللباقة . فلما أجذبت أرض مكة تخير أرضاً خصبة غيرها . بحث في الحبشة والطائف ثم استقر في المدينة لما عرف من صلاحيتها .

ومن كياسته أنه لم يقبل عند دخوله المدينة دعوة القبائل والبيوت . كانت كل قبيلة تناديه : يا رسول الله هلم إلى القوة والمنعة والثروة فيقول لهم خيراً . فإذا قربوا من دابته . قال : دعوها فإنها مأمورة .

ويقول في أشد ساعات العسرة والحرج قوله المتفائل المليء بثقة الله : والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت . لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

ويقول له عمر : لقد أثر في جنبك هذا الحصار . وفارس والروم قد وسع عليهم . وهم لا يعبدون الله .

فلما سمع الرسول مقالته : استوى جالساً وقال : أفى شك أنت

يا ابن الخطاب « أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا .
وعرف بالتواضع : دخل إليه الرجل يرعش فرقاً وخوفاً
فطمأنه وقال له لست بملك .

وأوتى إشراق النفس والتفاؤل وسرعة البديهة : صر مع
أبي بكر وبها في الطريق إلى فتح مكة بكلية تهر فلما دنوا منها
استلقت على ظهرها . فإذا أندأؤها تشخب لبنا فذكرها أبو بكر
فقال الرسول : ذهب كلهم وأقبل درهم . هم سائلوكم بأرحامهم
وأنتم لا قون بعضهم . فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

جمع القلوب بإرضائها بعد أن بهر بها بقوته . كذلك فعل مع
أبي سفيان : إذ أشار على « العباس » أن يقف به إلى جانب
الطريق ، حتى يرى ركب فتح مكة . ثم لما أسلم تحت إرهاب
الحملة الجبارة جعل له الرسول ما يريد من المخر . وما يتناسب مع
مكانه في زعامة قريش . وجعل داره في مكة كالمسجد : من دخل
أيهما كان آمناً .

وعرف لنفسه قدره على أصحابه : وعرف أصحابه قدره عليهم .
يقول في ذلك : ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة .

اقرأوا إن شئتم : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . فأبما مؤمن مات وترك ديناً فملى .

وعرف أصحابه قدره فأحبوه . وأسلموا أمرهم إليه مخلصين حتى ليقول أبو سفيان للرجل وهو يعذب : هل تحب أن تكون في أهلك وأن يكون عهد مكانك . فيقول الرجل : والله لا أحب أن تشوك محمد شوكة وهو في مكانه .

وتقول قريش لعثمان عندما احتججته في الحديبية : طف أنت بالبيت إن أردت . فيقول : والله لا أطوف بالبيت قبل رسول الله . وقد بلغت ثقة أصحابه به حداً لا يبارى ولا يدانى . يقول أبو سفيان : ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً .

وقد احتمل أتباعه العذاب والألم في سبيل ما جاءهم به في صبر واطمئنان . ثقة بالله وإيماناً بالقائد .

أما هو فإنه لم يتميز عليهم . وشاركهم في أمرهم كله . فبنى في المسجد وحفر في الخندق « ومشى على قدمه إلى بدر . وشارك

أصحابه في جمع الخطب . فإذا قيل لك قد نزلنا لك عن نصيبنا في الدابة يقول : ما أنتم بأقوى مني . وإذا قيل له نكفيك العمل قال: إني أكره أن أتميز عليكم . والله يكره من عبده أن يتميز عن أصحابه .

وأوتي دراسة الطبائع . وفهم نفسيات الناس قدراً كبيراً ، وامل كل صاحب من أصحابه على ضوء هذا الفهم الدقيق .

دخل عليه أبو بكر وهو مضجع وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج . ثم دخل عمر فقضى حاجته وخرج . ثم جاء عليّ فقضى حاجته وخرج . ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد . فقال إن عثمان رجل حي وأنا خشيت أن آذن له على تلك الحال ألا يبلغ إلى في حاجته .

ولما قال له أبو ذر : ألا تستعملني . ضرب بيده على قلبه ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف . وانها أمانة . وإنها يوم القيامة خزي وندامة . إلا من أخذها بحقها . وأدى الذي عليه فيها .

وهو القائل : أمرنا أن ننزل الناس منازلهم وأن نخاطبهم على قدر عقولهم . وهو القائل : الناس كإبل المائة لا تجد فيها راحلة .

مُلِي قلبه بالرحمة . والآل الله جانبه فاجتمعت إليه القلوب
 « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا
 من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت
 فتوكل على الله » .

يقول بديل بن هاشم مبعوث قريش في الحديبية إلى الرسول
 وأصحابه عند عودته إلى قريش : يا قوم ؛ قد وفدت على كسرى
 وهرقل والنجاشي وأنا والله ما رأيت ملكاً أطوع فيمن هو بين
 ظهرائيه من محمد في أصحابه ، والله ما يسددون إليه النظر ،
 وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرئ
 فيفعل ، وما توضع من وضوء إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه
 بشيء ، وقد حرزت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف
 بذلوه لكم . وقد رأيت قوما لا يبالون ما يصنع بهم إذا
 منعوا أصحابهم .

وأوتى الشخصية العملية . واستطاع تنفيذ أمره دون أن
 يلتجأ إلى إظهار السلطة .

وأوتى الجرأة . فسفه أحلام قريش . وطعن في أربابهم

وليس له من الحول والقوة شيئاً . وناهض رأى عمه وليس معه إلا قليل من الأنصار .

وأوى الدهن المرتب المحدد : فكان يضع لكل أمر حدوداً يقول في الفارق بين الشجاعة وضبط النفس : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه وقت الغضب »

ويقول في الرجل المستقل رأى والمعدوم رأى « لا يكون أحدكم إمامه . يقول أنا مع الناس . ان أحسن الناس أحسنت . وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تحقنوا إساءاتهم

وبلغ من حسن معاملته للناس حداً كبيراً . دون أن يضحى بشيء من مبادئه ومع التوجيه والاعداد ، يصبر للغريب على الجفوة في منطقته ومساألته . ويستوى بين الناس في النظر والاستماع . جمع له الحلم والصبر . إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى كفهم عنه ، وإذا أتى قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً .

وقد بلغ من تآلفه للأصحاب والاتباع انه ما جلس إليه أحد إلا ظن أنه أقرب الناس إلى نفسه .

يقول : إذا أذاع أمراً . ليبلغ الشاهد الغائب . ويوصى بأن
يحمل إليه أمر من لا يستطيع رفع حاجته . فيقول : أبلغوني
حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة
من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدمه يوم القيامة .

وأوتى الكياسة السياسية والبراعة الحربية .

قال لنعيم بن مسعود ، عندما جاءه مسلما في موقعة الأحزاب
قال عبارة قصيرة فيها كل كياسة السيامي : خذل عنا ما استطعت .
ويقف قبيل « معركة بدر » فلا يبرحها حتى يستشير الناس
ويقصد الأنصار بالذات . ذلك لأنهم كانوا قد بايعوه في حدود
مدينتهم العذراء وتلك كياسة سياسية منه قبل أن تكون
براعة حربية .

ومن كياسته السياسية أنه لما وزع الفنائم في حنين على
المهاجرين دون الأنصار . قال الأنصار : قد عرف النبي أهله
وقومه فجمعهم في الحظيرة وصنى نفوسهم حتى استقدموا وثابوا
وعرفوا أنه إنما تألف بها قلوب و وكل الأنصار إلى إيمانهم

ومن « براعته السياسية » أنه أبقى على (عبد الله بن أبيّ سلول) فلم يقبل رأى عمر في قتله حتى انكشف أمره للناس فكان قومه أول من أخذه بالعنف « إذا أحدث أمراً . حتى قال الرسول لعمر يوماً : كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لا رعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته

قال عمر : قد والله علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمري

وأوتى سمة الأفق . صلى على «عبدالله بن أبيّ» وأعطاه قيصة ولما اعترضه عمر قال . أخرعني يا عمر . لو أعلم أني لو استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة غفر لهم لاستغفرت لهم

وحرص على مظهر القوة لأصحابه ودعوته عندما جاء مكة في عمرة القضاء اضطلع بردائه وأخرج ضده اليمنى « ثم قال رحم الله امرأاً أراهم اليوم من نفسه قوة وكان ذلك رداً عملياً على قالة قريش بأن حمى يثرب قد أنهكتهم .

عامل الناس على قدر مكانهم في دعوته جاءه الخلفون من

المنافقين فجعلوا يعتذرون إليه ويحلفون له فقبل منهم علانيتهم وإيمانهم ووكّل سرّهم إلى الله ولم يقبل من المؤمنين عذرهم وأمر بمقاطعتهم . وطالبهم بالانفصال عن زوجاتهم حتى ينزل فيهم أمر الله

وعرف بالحكمة والتدرج في التربية إن أناسا من الأنصار سألوا رسول الله فاعطاهم . ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده فقال ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف بعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر

حرص على إقرار الحقيقة ، وعو الشبهة : عن صفية ، أنها جاءت الرسول تزوره في اعتكافه في المسجد في المشر الأواخر فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت عائدة فمضى معها النبي حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة ، مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله فقال لهما النبي : على رسلكما ، إنما هي صفية بنت حيي ، فقالا . سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ،

فقال النبي إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً .

ومن حرصه على العهد والوفاء ، يقول لأبو جندل بن سهيل وقد جاءه بعد صلح الحديبية ، أننا قد أعطينا القوم عهداً فاصبر حتى يجعل الله مخرجاً ، ويقول لأصحابه عند خروجهم للنزوة . إذا أعطيتم فلا تعطوا ذمة الله وذمة رسوله ، ولكن أعطوا فضلكم وذمة أصحابكم ، وإذا حاصرت أفضل حصن فارادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فاتكم أن تحفروا ذممكم ، أهون من أن تحفروا ذمة الله ورسوله .

ومن حكمته وسياسته ، أن يرد كل حق إلى صاحبه ، فيتألف بذلك القلوب ويكون الأمر أكثر سداداً ؛ نادى عثمان بن طلحة يوم فتح مكة ، وأعطاه مفتاح الكعبة ، وقال يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء .

ومن سياسته الممتدة على الفهم النفسى العميق ، أنه أطلق « الهدى » في وجه سفير قريش إليه في الحديبية ، فتأثر الرجل من

منظر الهدى ، وقد تآكلت أوباره . ورجع إلى قريش دون أن يلتق رسول الله .

وله حكمة عالية في تلقى الأنباء وتصديقها : بصورها في موقفه من زيد ابن أرقم حين حدثه بحديث « ابن أبي » وقد أخذ الرسول يحاوره في أدب جم ، يدفع فيه الاتهام ما استطاع عن « ابن أبي » فيقول له : يا غلام لعلك غضبت عليه . لعله أخطأ سمعك . لعله شبه عليك . وزيد يؤكد الخير والسمع .

ونفاذ بصيرته من حاضر الامور إلى مستقبلها بالفراسة والتقدير : أراد عمر أن يمثل بسهيل بن عمرو ، فيخلع ثيابه ، فمرضه الرسول وقال لا أمثل به ولو كنت نبيا . وعسى إن يقوم مقاما لاتذمه . وقد أسلم سهيل من بعد وقام في أهل مكة ابان فتنة الردة موقفا كريما .

وعرف بمداواة الناس بالحكمة والتقية : عن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله فقال بشئ أخ المشيرة . ثم أذن له قالت عائشة فلم انشب أن سمعت ضحك النبي معه فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت ما قلت . ثم لم تنشب أن ضحكت معه . فقال :

ان شر الناس من اتقاء الناس لشره .

وعرف بالعدل بين الناس حسب قدومهم إليه : جاءه انصارى يسأله وجاءه رجل من ثقيف يسأله : فقال : يا أخا ثقيف إن انصاريا قد سبقك بالسألة . فاجلس كما نبدأ بحاجة الانصارى قبل حاجتك .

ويقضى بين الناس ويقول : أمرت أن أحكم بالظاهر . والله يتولى السرائر . ولذلك يقول محذراً وموجها : أنكم تمقتصمون إلى ولعل بمضكم الحن بحجته من بعض . فمن قضيت له أخيه شيئا قائما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها .

ويصف سياسة الاستعباد التي تفرق بين مجرم ومجرم . وبين مذنب ومذنب . فيقول : أما أهلك من كان قبلكم أنه كان إذا أجرم العظيم تركوه وإذا أجرم الضعيف أقاموا عليه الحد . وفي رواية إذا سرق الشريف تركوه . إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وهو الذي يضع أمور القضاء في نصابها فلا يقبل فيها شفاعاة ولا مساومة ولا دية فيقول لأسامة : ويك أسامة أنشفم في حد من حدود الله . وإيم الله لو أن فاطمة بنت يامحمد سرق لقطع محمد يدها .

وعندما أرسل معاذ إلى اليمن : قال له يسر ولا تمسر ، بشر
ولا تنفر ، وإذا جلس اليك الخصمان فلا تقضى بينهما حتى تسمع
من الآخر .

وبعد فهذه في مجموعها شمائل إنسان : أول سطر فيها البذل
والمطاء والتضحية والفداء والأذى في الله والخوف من الله .
وخشية الله وحده لا ترهبه صولة ولا ترده قوة بالغة ما بلغت من
الظلم والإعنات عن دعوته ورسالة ربه .

الدار القومية

للطباعة والنشر

شركة ذات مسئولية محدودة

٣٠ شارع منصور

ص. ب. ٢٣٥٨

القاهرة

مطابع دار الكتب العربى بمصر

محمد حلمى النياوى

کتاب تفادیه

محفل الرسول

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ
فأوحى

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الثاني

بمقام

أنور اجمندی

كتب ثقافة

محمد الرسول

"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ"
قوانكيم

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الثاني

بمقام

أنور الجندى

الزعامة

«قالت عائشة : دخل أبو بكر على رسول الله وهو مضجع . وعليه ثوبه فقضى حاجته وخرج . ثم دخل عمر فقضى حاجته وخرج ثم جاء عليّ فقضى حاجته وخرج .

ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله . فقالت له عائشة . لم تصنع هذا بأحد . قال النبي : إن عثمان رجل حيي . وأنا خشيت أن أذنت له على تلك الحالة ألا يبلغ الى في حاجته »

يقول صاحب الطبقات الكبرى يصف « زعامة محمد » :
« يحسن الحسن ويقويه . ويقبح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر غير
مختلف . لكل حال عنده عتاد . لا يقصر عن الحق ولا يحوزة الدين .
يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم
عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة . لا يجلس ولا يقوم إلا على
ذكر . لا يوطن الأماكين وينهى عن إبطائها . وإذا انتهى إلى قوم
جلس حيث انتهى به المجلس . ويأمر بذلك . ويعطى لكل جلسائه
نصيبه ، لا يحسب جليسه أن احداً أكرم عليه منه

ومن جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو
المنصرف » ومن هنا أتى من القدرة ما تقصر عنه قوى الأفراد
وتعجز عنه طاقاتهم ، ذلك مصدر الامتياز الانساني والاصطفاء الرباني

ولقد كانت قریش على خصومتها له تهاب فيه هذا الاشعاع
الروحي وتخشاه ، فقد كانت تعرف من استكناها لطبيعة امتيازها
عليها بالعفاف والوفاء والصدق والأمانة .

وقد أتى الصبر الطويل على المسكاره المتصلة ، والأذى كما

خلص من عوامل النقص ومركباته فلم تبرز في تصرفاته أى نازعة من نوازع الكبرياء أو الطغيان .

وعقد له « لواء الزعامة والقيادة » بالفقر والتواضع لا بالمال والثراء فكان يعود المريض ويقبل دعوة العبد ، ويدعو أصحابه بأحب الأسماء إليهم . ويخفص جناحه للمسلمين وهو سهل فى أخذه وعطائه . وكان الاعرابى يدخل عليه فيناديه باسمه مجرداً فيحلم عليه ويمطف وبلغ من بساطته أن يدخل عليه الداخل فلا يعرفه فيسأل أيكم النبى .

«أوتى» القدرة على الجمع بين الأوس والخروج ، وأخى بين المهاجرين والأنصار ، ولم يتقدم إلى بدر إلا بعد أن أخذ موثق الأنصار . وعامل المناققين فى رفق وحزم ، وكم أمره دائماً .

وربط بينه وبين كبار رجاله بالمصاهرة ولم يعتمد على الخوارج والظواهر الطبيعية ، ولم يكن يتكلم من غير حاجة ؛ وكان طویل السكوت وكان يسمع قول أصحابه ولا يقول شيئاً

وكان يحرص على أن يكون لكل عمل « أمير » . يقول «أيا ثلاثة خرجوا فى سفر فليأمروا أحدهم» . وكان إذا خرج فى

غزوة استخلف على المدينة وعلى الصلاة . وكان يختار لأمانة
الناس أحاسنهم أخلاقاً فيقول « أيما رجل أم قوما وهم له كارهون
لم تجز صلاته أذنيه » ومع ذلك فقد كان يفضل الاحتماع على قائد
عن الفرقة ويراها رابطة الناس . ولو كان فيها جور فيقول :
« الإمام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشر
خيار »

• • •

وأوتى القدرة على احتمال التكذيب والافتراء والإيذاء
في رحابة صدر وضبط أعصاب . حين ردته الطائف وقد أتاها
داهيا ؛ وحين حدث أهل مكة بالإسراء ، وحين ردته بنو حنيفة
وحين مضى عمه أبو لهب ورائه في كل طريق ، يكذبه ويشكك
الناس في دعونه .

وكان زعيما قادرا في شئون الحرب . رتب الرماة وصف
الفرسان وفي شئون الاقتصاد ففرض الزكاة وجمعها وأمر بقتال
من يمنعهما كالصلاة سواء

وكان يحب المساواة ويكره التميز . ويقول « يكره الله

عبدا يتميز عن أصحابه « وكان دستوريا في تصرفاته : يشاور قومه في الأمر وينزل على رأى أحدهم وكان قانونيا ضليعا أفتى واجتهد وقن القوانين وربى رجال الفقه بعده على سنن الاجتهاد وكان زعيما سياسيا يعقد المعاهدات ويرسل البعثات ومخاطب الملوك ويوفد الوفود .

كان أول عمله في المدينة بناء مسجده « فكان المحراب والبرلمان » ومقر السلطة التنفيذية ومجلس الشورى ومركز القيادة الحربية العليا

وإذا نودى « الصلاة جامعة » هرع الناس إليه ليعلموا من أمر دينهم ودنياهم ما يريد رسول الله أن ينبئهم به .

وفي المحراب قامت دولة الساجد، فكان يستقبل الرسول فيه الوفود، وتعقد فيه حلق العلم وتخرج منه الرايات والأعلام للحروب . وتقرر فيه مصائر الجزيرة العربية ، وتوضع فيه قواعد الفتيا والتشريع « ومن هذا المسجد خرج أبطال الإسلام

وقد نزل الرسول عن رايه لرأى الحجاب بن المنذر في بدر وفي تأييد النحل لقول أهل الخبرة .

في تصرفاته حكمة التوجيه : يقول يسلم الراكب على الماشي ،
والماشي على القاعد والقليل على الكثير .

ويقول : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

ويقول : إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث

ويقول : لا تقوموا كما يقوم الأعاجب .

ويقول الرجل الذي جاء يودعه . إما ان تركب وإما أن

تنصرف

ويقول لصاحب الدابة : أنت أحق بصدر دابتك مني .

ويقول . إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها . وإذا

وقع في أرض وأتم فيها فلا تخرجوها منها .

وقال : إذا ركبت هذه الدواب فاعطوها حظها من المنازل

وقال : إن الله كتب الإحسان على كل شيء . . .

وقد كانت « القيادة » في حياته تقوم على النظام والاختيار

والمزم والحزم

أرسل في غزاة « مؤته » قائد وخليفة للقائد الأول . وخليفة
للثاني . ثم وضع الخطة فيما يكون بعد ذلك لو أصيبوا ، بأن يختار
الناس رجلاً رابعا . كان ذلك أمره في كل غزاة أو سرية أو سفر
يضع أمر الناس في « رجل » يتخيره ويكون ممتازاً بصفة من
الصفات

فعبد الله بن جحش أقدر أصحابه في السرية على الجوع
والعطش . وأبو بكر في أمانة موسم الحج أصبر الناس . وأفسحهم
صدراً على تحمل مشاق السفر ، وعثمان في سفارة مكة أقرب
الناس إلى نفوس قريش . وأقدرهم على التفاهم معهم . والعباس
في مناداته على المسلمين الفارين من نبال « حنين » أجهر الناس
صوتا . « وعلى » للبعوث بصدد براءة أقرب الناس نسباً إلى
الرسول .

بل ان الرسول عندما يرسل عمرو بن العاص على رأس الجيش
يضع له الخطة في التفاهم والتبعية مع القائد الذي يشرف على
المنطقة وهو أبو عبيدة .

ولما أراد أن يصادر الخمر أمر عبد الله بن عمر ، أن يأتيه بمدينة
ثم أرسل بها فأرهفت . يقول عبد الله ثم أعطانيها وقال اعذبها
فخرج إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر ، قد جلبت من الشام
فأخذ المدينة فشق ما كان في تلك الزقاق بحضرته . ثم أعطانيها
وأمر الذين كانوا معه أن يعضوا معي ويعاونوني . وأمرني أن آتي
الأسواق كلها فلم أجد فيها زق خمر إلا شقته

وهكذا يتجلى في تصرفه التنظيم والقاعدة مع الترتيب
والإشراف وتظهر صفتي العزم والحزم بجلاء في تصرفاته وسجاياء
وتوجيهه للأمور .

حين لبس لأمته في « أحد » لم يتراجع ، بعد أن تراجع
المسلمون عن رأيهم وقال . لا ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها
حتى يقاتل

وحين انضم إلى جيش المسلمين (حبيب بن لسياف) وكان مشركا
شجاعا . فرح به المسلمون ، فلما علم به رسول الله رده وقال .
لا ينتصر باهل الشرك على أهل الشرك

وحين طلب منه أحد المسلمين أن يلى ولاية فقال
له : إنا لا نستعمل على عملنا من أراد

وحين أمر ألا يوقظ أحد أحداً في بيعة العقبة الكبرى عندما
تواعد مع أهل يثرب على الالتقاء في المكان الذي كان قد عينه
بعد مضي الهزيع الأول من الليل ليكون ذلك تقديراً عملياً لدرجة
الإيمان والافتناع

وحين أرسل عبد الله بن جحش في أول سرية أمره ألا
يستكره أحداً على المضى معه

ولما أرسل عثمان لأهل مكة في الحديبية للتفاهم في أن يدخل
المسلمون مكة معتمرين وحسبه قريش . وأذيع أنه قتل ،
وقف تحت شجرة الرضوان وقال لا نبرح حتى نناجز القوم ،
يايموني ، فبايحه المسلمون وضرب بسكفه اليسرى وقال : وهذه
بيعة عثمان

وتتجلى قوة زعامته في تلقى الأحداث والأزمات بقلب
مطمئن وعقل ناصع وعاطفة مشرقة فلا ينزعج لتلقى أى نبأ مهما
بالغ خطره

وكان مع قدرته هذه رقيق الشعور

وأوتى العلم والبيان والبلاغة حتى بلغ فيها الذروة بين فصحاء العرب وبلغناهم .

وأوتى ضبط النفس فلم تحص له بادرة بالرغم مما لقي من جفوة الأعراب وسوء التعبير .

وأوتى سداد الرأي وسرعة الخاطر ووضوح التفكير وحدة الذهن واللباقة وحسن الحديث ، فكان الرجل القوي المتميز بقوة المدل بكبريائه يسلم له بعد كلمات قلائل .

مر الطفيل بن عمرو الدوسي بمكة فسمى إليه بعض وجوه قريش فقالوا له : إن محمداً فرق جماعتنا وشتت شملنا ، وأنا نخشى عليك وعلى قومك فلا تسكلمه ولا تسمع من منه شيئاً قال فندوت على المسجد فإذا برسول الله قائم يصلي عند الكعبة فقامت منه قريباً فأبى الله إلا أن يسمعي منه بعض قوله .

فسمعت منه كلاماً حسناً ! فقلت في نفسي . وائكل أى لله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول .

فكشكت حتى انصرف إلى بيته فتبعته ، حتى إذا دخل بيته
دخلت عليه وقلت :

يا محمد : إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، فوالله ما برحوا
يخوفوني أمرك حتى سددت أنى بكرسف لثلا أسمع قولك ، ثم
أبى الله إلا أن يسمنى قولك فأعرض على أمرك .

فعرض عليه الإسلام وتلا القرآن . فوالله ما ضمعت قولاً
قط أحسن منه ، ولا أمراً أهدل منه . قال فأسلمت وشهدت
شهادة الحق .



أوتى الجاذبية والإشعاع يحتذب به قلوب من يتصل به . هذا
إلى زهد في الدنيا واكتفاء بالبلاغ فيها ، وإيمان بدعوته . يملأ عليه
كل أقطار نفسه فلا يبقى بعدها أمراً من أمور دنياه يهيمه
أو يصرفه .

ولقد كان الرسول فقيراً ومع ذلك فقد أعرض عن متاع الدنيا
وانشغل عنه بما هو أجل وأخطر ، وقد ضرب المثل بذلك

للصلحين والقادة ولقد كان إغضاء» عن مطامع المال والثراء
والتنازع أول أسلحة النصر .

ولقد دخل المسجد وكان المال مكدسا به ينتظر توزيعه فلم
ينظر إليه حتى أتم صلاته .

ولم يمنع هذا التقدير من أن ينظر إلى الأمور نظرة شاملة
فيقول لسعد : إنك إن تدع عيالك أغنياء خير من أن تدعهم
عالة يتكففون الناس .

أو يسأل عن الرجل العابد فيقول الناس : إننا نطمعه فيقول
كلكم خير منه .

والمال عنده عدة الحق ، وما يكون له في القلب مكان :
« لم يمتلئ جوف النبي شيئا قط ، وإن كان في أهله لا يسألهم
طاماما ولا يتشبهاء إن أطعموه أكل » وما أطعموه قبل وما سقوه
شرب » .

وما رفع قط غذاء لمشاء ، ولا عشاء لفداء ، ولا اتخذ من
شيء زوجين ولا قيصين » ولا رداين ولا إزارين ولا زوجين من
من النمال . وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من
الشمير .

وقد خير فاختار أن يكون نبياً فقيراً ولا يكون نبياً ملكاً
حتى يجوع يوماً وبشبع يوماً. ويقول «أجوع يوماً فأدعوك وأشبع
يوماً فأحمدك» .



وقد سجل محمد أنه يعمل بدون أجر «يا قوم لا أسألكم عليه
أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرني» «وما تسألهم عليه من
أجران هو إلا ذكرى للعالمين» ، «وأن توليتم فما سألنكم عليه
من أجر إن أجرى إلا على الله» .

ولقد قنع بالقليل من الطعام واللباس فكان طعامه الشعير
ومركزه المسجد ومنبره من الجريد ، وفرشه من آدم .

وكان يقول «جعل رزقى تحت ظل ربحى» وفى هذا معنى
الكسب الشريف القوى الذى لا يكون إلا بالجهاد والقتال
وأغتنام الفنائم ، التى لا تتحقق إلا بذكر الأعداء والإدالة منهم .



وكان أخا لكل مسلم ، وكان لأمثال أبى بكر وعمر وعلى
وعثمان صاحباً ورفيقاً ، ولكن ذلك كله كان له حده لمحدود

وكانت صفة القيادة هي أغلب الصفات في تقدير الأمور وتوجيهها بين الرسول وأتباعه وقد عرف الرسول بأدب الخطاب ، لم يقدم توجيهاته في صيغة الأمر أبداً ولكن في صيغة الرغبة .

قال للمسلمين عند ما جاءه أهل هوازن مسلمين . إن هؤلاء قوم جاءوا مسلمين ، وقد كنت أستاذيت يسبهم ، وقد خيرتهم فلم يمدلوا بالأبناء والنساء شيئاً فن كان عنده منهم شيء فطابت نفسه أن يردّه فليفعل ، ومن أبي فليرد عليهم . وليكن ذلك فرضاً علينا ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا



وقد بلغ خوفه من ربه حداً لا يبارى :

بانت مع رسول الله أوقية من مال جاء اليه ، فلما كان الليل وضعها تحت رأسه وفراشه عباءة ، فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع فيصلي . فقامت عائشة : يا رسول الله هل بك شيء ؟

قال لا . .

قالت : إنك صمت منذ الليلة شيئاً لم تكن تفعله فأخرجها .

وقال: هذه التي فعلت بي ما ترين . إني خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها .

وهو الذي يقول : بعثني ربى على صراط مستقيم مثل حد السيف إن زغت عنه هلك . ثم تلا « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا نجد لك علينا به وكيلا »



وكان يحسن معاملة أعوانه قال أنس خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط . وعندما أعطى الرجل الاعرابى شيئاً وقال له : أحسنت إليك . قال كلا ولا أجلت .

فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا .

ثم دخل منزله وأرسل إلى الاعرابى وزاده شيئاً . ثم قال : أحسنت إليك قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً

فقال له : أنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شئ من ذلك فإن أحببت ، فقل بين أيديهم ما قلت بالأمس بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال نعم . فلما كان الغداة

جاء فقال النبي : أن هذا الاعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه
رضى . أ كذلك ؟

قال نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال محمد : إن مثلي ومثل هذا الاعرابي كمثل رجل كانت له
ناقة شردت عليه ، فتبمها الناس فلم يزدها الا نفوراً ، فناداهم
صاحب الناقة . خلو بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأعلم فتوجه
اليها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ من قام الأرض فردها هونا
هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها
واني لو تركتكم حيث قال ما قال فقتلتموه دخل النار

وهكذا يضرب الأمثال في الحكمة وبعد النظر في معاملة
الأتباع بالرفق والرعاية حتى تستقيم الأمور ويظل الجو صافيا
لا تشوبه شائبه .

ومن أريحية زعامته أنه أطلق ابنة « حاتم الطائي » وقال
انها ابنة من رفع ذكر العرب في الكرم ولو لم يكن مسلماً .

ومن ملاح زعامته انه كان يحرس بنفسه ثلثة في الخندق
فاذا آذاه البرد يدخل قبعة فتدفنه عائشة ثم يخرج إلى الثلثة
يحرسها . .

وفي مواقف الشدة والازمات كان يقضى أموره في طي من
الكتمان حتى لا يفت انكشافها في عضد أنصاره وأتباعه .

في غزوة الخندق علم بأن « بنى قريظة » قد نقضت عهدها
فأرسل بعض أصحابه ليستطلعوا الخبر . وقال لهم الرسول « إذا
رجعتم فالحنفوا لي لحنا أعرفه » .

فلما عادوا : سألهم الرسول : ما وراءكم !

قالوا : عضل والقاره (يعمون الغدر)

وهكذا : كانت زعامته النبوية « فيها القوة في موضعها واللين
في موضعه » ومواجهة الاحداث بالحكمة والإيمان أو بالمداواة
حسبما يتطلب الموقف .

زعامة

كما رآها هرقل ،

عند ما وجه دحية الكلبي إلى هرقل بكتاب يدعو به إلى الإسلام . جمع الناس وفيهم فريق من أهل مكة .

ودار في مجلسه هذا الحوار ، بينه وبين أبي سفيان . وهو حوار يدل على بعد غور « هرقل » وفهمه لأبواب الرسائل والزعامات وتقدير الأوضاع والنظم

وهذا هو نص الحوار بين هرقل وأبو سفيان

— أياكم أقرب نسبا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي أنا .

-- أني سائل هذا الرجل (موجهها الكلام إلى من يحضره الذي يزعم أنه نبي . فان كذبتني فكذبوه : كيف حسبه فيكم — هو فينا ذو حسب

-- هل كان من آبائه ملك

— لا —

— هل كنتم تهمونه بالكذب قبل ما يقول ما قال ؟

— لا —

— أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم

— بل ضعفاؤهم

— يزيدون أم ينقصون

— بل يزيدون

— هل يرتد أحد منهم بعد أن يدخل فيه ؟

— لا —

— هلى قاتلتموه

— نعم

— فكيف كان قتالكم إياه

— الحرب بيننا وبينه سجال . نصيب منه ويصيب منا

— هل يفدر

— لا . . ونحن منه فى مدة ولا ندرى ما هو صانع فيها

— هل قال هذا القول أحد قبله

— لا

ثم قال هرقل معلقا ومفصلا

سألتك عن حسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو حسب وكذلك
الرسل تبعث في أحساب قومها .

وسألتك هل كان في آباءه ملك فزعمت أن لا . فقلت : لو
كان في آباءه ملك قلت رجل يطلب ملك آباءه

وسألتك عن أتباعه : أضعفاؤهم أم شرفاؤهم فقلت بل
ضعفاؤهم . وهم اتباع الرسل

وسألتك هل تهمونه بالكذب ، قبل أن يقول ما قال «
فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم
يذهب فيكذب على الله .

وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه
سخطه له ، فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته
القلوب ،

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أن يزيدون وكذلك
الإيمان حين يتم .

وسألتك هل قاتلتهموه نزعمت أنكم قاتلتهموه فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ، ينال منكم وتغالون منه وكذلك الرسل تبطل ثم تكون لهم العاقبة .

وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك هل قال هذا القول قبله أحد فزعمت أن لا فقلت لو كان قال هذا أحد قبله قلت رجل اثم يقول قبل قبله .
ثم قال هرقل :

— بم يأمركم

— يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف .

— إن يك ما نقول حقا فإنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسأت عن قدميه .
وليبلغن ملكه ما تحت قدمي .

قال أبو سفيان : أمر أمر ابن أبي كيشة ، أنه ليخافه ملك بني الأصفر !

مع أتباعه

يقول أبو هريرة : « خدمت
رسول الله عشر سنين فما قال
لي أف قط ، وما قال لشيء
صنعتَه لم صنعتَه ولا لشيء تركته
لم تركته .

يواجه الأنبياء والمصلحون في العلاقة بينهم وبين أتباعهم أدق المواقف ولقد كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يواجه أمور أتباعه بنفسه ويرد على أسئلتهم واعتراضاتهم ، وقد قامت الرابطة بينه وبين أتباعه على الثقة الكاملة التي تحققت بعد مواقف وأحداث فقد دعا رسول الله في بيثة عرفت بالجفاف والقسوة وبين جبابرة عتاه غلاظ بلغ حرصهم على مخلفات الآباء حداً كبيراً ويلفوا في خصومتهم لكل جديد فدرأ وافرأ ، فلم يكسب مكانه إلا بالصبر والتضحية والجهد الدائب من ذات نفسه .

وقد احتل في سبيل دعوته جفوة الأعراب وأذى قريش وجدال اليهود ودسائس المنافقين ومكر أبي جهل في مكة وابن أبي في المدينة .

• • •

قال لأهل مكة حين ظنوا أنه إنما يطالب بدعوته شرفاً أو سلطاناً عليهم :

باقوم ما جئكم به - أى هذا الأمر - أطلب أموالكم
ولا الشرف ولا الملك عليكم ، ولكن الله يبعثني إليكم رسولا
وأزل إلى كتابا وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم
رسالات ربي فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة « وإن
تردوه فإن على أن أصبر على أمر الله حتى يحكم بيني وبينكم » .
وقد عامل رسول الله الذين اتبعوه بالحسنى والتوجيه معا ،
وساس هذه القبائل بالحكمة حتى دانت له وبلغت غاية الثقة فيه
وتأتى له أن يتصرف فى مصيرها .

وهو يتخير الأنباع للدعوة فى أشد أوقات الهمة : فيقول
اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك : عمرو بن هشام أو عمر
ابن الخطاب ويثبت قلوب أنبائه بقوة يقينه وثقته فى نصر الله
وتأييده « فيقول لعمر وقد دخل عليه العرفة ، ورأى أثر الحصار
فى جنبه الشريف : أفى شك أنت يا ابن الخطاب .

ويقول لعدي بن حاتم : أرايت الحيرة ، قال نعم ، قال فإن
طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف
بالكمبة لا تخاف أحداً إلا الله ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن

كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج مليء
كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً
يقبله منه .



ولا يتمتع هذا من أن يقاوم روح الخوف والضعف إذا رآها
بدأت تسرى في أتباعه ويردّن ، اليأس عنهم بقوة .

عن « خباب » : شكونا إلى النبي وهو متوسد بردة في ظل
الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة . فقلت ألا تدعوا الله ففعد
وهو محمر وجهه . قال : كان الرجل فيما قبلكم بحفر له في الأرض
فيجعل فيه ، فيجاء بالنشار ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحه من
هظم وعصب ما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر
حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله
والذئب على غنمه واسكنكم تستعجلون .



ولقد كان يقبل من المنافقين ما لا يقبله من المؤمنين

فقد جاءه المخلفون عن غزوة « تبوك » وطفقوا يمتدرون إليه ، ويخلفون وكانوا بضمة وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

فلما جاءه المؤمنون المتخلفون ، وسلم عليه أحدهم تبسم تبسم الغضب ، وقال ما خلفك ؟ قم حتى يقضى الله فيك وفي إخوانك .

ونهى المسلمين عن كلامهم فاجتنبهم الناس خمسين ليلة حتى إذا مضت أربعين ليلة من الحسين ، أرسل إليهم النبي أن اعتزلوا نساءكم وبقي أمرهم كذلك حتى أزل الله توبته « لقد تاب الله عن النبي والمهاجرين والأنصار . . » إلى قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وضاقت عليهم أنفسهم . وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو القواب الرحيم »

وكان يدع لأصحابه بعض الأمور فلا يرى فيها إلا رأيهم

وجمع في ذلك كله البساطة إلى السهاحة التي تأسر القلوب وتملأ
الأرواح بالرضا والطمأنينة .

قال لوفد « هوازن » حين جاء يطلب رد ما أخذ منه : أما
ما كان لي ولبنى عبد الطلب فهو لكم وأسأل لكم الناس .

ولما استجارت ابنته « زينب » لزوجها بالمسلمين ترك الأمر
لأصحابه وقال : إن المسلمين يحبر عليهم أديانهم

ويقول « أنس » : كنا مع النبي في سفر . منا الصائم
ومنا المفطر فنزل منزلاً في يوم حار فسقط الصوم وقام المفطرون
فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال : ذهب المفطرون اليوم
بالأجر . وقد بلغ من بساطته ورغبته من ألا يتكاف قومه من
الأمر ما يجهدم أنه كان يدع العمل وهو يجب أن يمجله خشية
أن يعمل به الناس فيفرض عليهم .

وهو الذي يقول : انكم لن تسموا الناس بأموالكم فسموهم
بأخلاقكم

وكان يحرس على مكانة أصحابه فيقول : ليلني منكم أولوا
الأحلام والنهي

وقد كان حذبه على أتباعه حذبا عجيبا . وفي غزاة ما ، مر من مضيق ، فوقف لأصحابه . حتى يمروا وهو ينفخ ظهورهم ويقول : مروا باسم الله . اللهم أحمل عليهم في سبيلك . فانك تحمل على القوى والضعيف . والرطب واليابس . والبر والبحر .



وفي مرصه الأخير ينادى في الناس : يا أيها الناس من كنت جللت له ظهراً فهذا ظهري ، فليستقد مني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه . ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلي فانها ليست من شأني . وقد جمل من علامات التبعية الصادقة أن يكون أحب إلى كل فرد من أهله ونفسه . « أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما »

قال له عمر . أنه لا يزيد عندك حب أحد بعد نفسه إلا رسول الله فلم يابث أن قال له . حتى أكون أحب إليك من

نفسك فقال عمر . أن رسول الله أحب إليه من نفسي التي بين
جنبي . قال محمد . الآن يا عمر



ولقد كان له عليه السلام في مواجهة المتجهين الى الإيمان
بدعوته مواقف مختلفة .

عندما طرق « عمر بن الخطاب » باب دار الأرقم ابن أبي
الأرقم خشيه الصحابة وظنوا أنه إنما جاء ليقتل محمداً فهض
إليه حتى لقيه فاخذ بحجزته (بمجمع رداءه) ثم جبنه جبنة
شديدة وقال . ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهي
حتى تنزل بك قارعة

قال عمر . جئت لأؤمن بالله وبرسوله . وبما جاء من عند
الله فكبر الرسول تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر
قد أسلم .

أما « عدي بن حاتم الطائي » فانه تلقاه بصورة أخرى .
يقول عدي : دخلت على محمد وهو في المسجد فسلمت عليه
فقال : من الرجل ؟

فقلت : « عدى بن حاتم »

تقام وانطلق بى إلى بيته . فوالله انه لما مد بى إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف طويلا ، تسكلمه فى حاجتها
قال : فقلت : والله ما هذا بملك .

قال : ثم مضى بى رسول الله حتى إذا دخل بيتنا تناول وسادة
من آدم محشوة ليفا فقدمها إلى فقال : اجلس على هذه .
قال : فقلت بل أنت فاجلس عليها . قال : بل أنت .
فجلست عليها وجلس هو على الأرض .
قال فقلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك .

ثم قال : اية يا عدى بن حاتم . ألم تك ركوسيا فان ذلك
لم يكن يحل لك فى دينك .

قلت : اجل والله . وعرفت انه نبي مرسل . يعلم ما يجمل
قال : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى
من حاجتهم . فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد

من يأخذه . ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه إنك ترى أن الملك
والسلطان من غيرهم . وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور
البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال فأسلمت .
وقد رسم « القرآن » العلاقة بينه وبين أتباعه في الطاعة
والاستئذان » وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى
يستأذنوه » وغض الصوت عنده ونهى عن الجهر بالقول له . أو
الناداة من وراء الحجرات .

وقد بلغ حب أصحابه له مداه فكانوا يقتدون به ، وكان
« خالد » يلبس قلنسوة صفرها من ناصية رسول الله ، وكان عبد الله
ابن مرويدور بدابته في المكان الذي كان يدور فيه الرسول
بدابته .

• • •

وحين دعا إلى البذل في غزوة « العسرة » جاء أبو بكر بماله
كله . وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء العباس بتسعين ألفا وحمل
عبد الرحمن مائتي أوقية ، وتصدق عاصم بتسعين وسقا من التمر ،
وجهز عثمان ثلث الجيش ثم جاء بألف دينار ففرغها في حجر
النبي فجعل يقلبها ويقول . ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم .

(٢)

ويقف بمدح أصحابه موقف الأبوّة والأخوة والصداقة
الغامرة بالحب والمطف والمفوّ :

مر على « مصعب بن عمير » وهو مقتول في برده فقال :
لقد رأيتك بمكة ، وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن
لة منك .

ثم أنت أشعث الرأس في بردة مرقعة .
وبكى رسول الله لما كان فيه مصعب من النعمة .

* ❦ *

وفي « الفزوات » كان يسأل عن أصحابه يتعرف أمرهم ،
وهو الذي قال في غزوة من الفزوات ، من رجل ينظر إلى ما فعل
« سعد بن الربيع » أفي الأحياء هو أم في الأموات .
فقال رجل من الأنصار ، أنا أنظر لك يارسول الله — ما فعل
سعد ، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق ،

قال : فقلت له . إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء
أنت أم في الأموات .

قال : أنا في الأموات فأبلغ الرسول الله عني السلام . أنه
لا عندكم عند الله أنخلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف .

وفي غزوة المسرة (تبوك) عندما مضى محمد من ثنية
الوداع جعل يتخلف عنه قوم ، فيقولون . تخلف فلان .

فيقول . دعوه فإن يك فيه خير يلحقه الله بكم وإن يك غير
ذلك فقد أراحكم الله منه .

وأبطأ « أبو ذر » من أجل بعيره ، فقد كان نضواً أعجف
ثم عجز فتركه وحمل متاعه على ظهره . وصار ماشياً وحده في
حر شديد حتى لحق رسول الله نصف النهار . وقد بلغ منه العطش
فقال محمد : مرحباً بأبي ذر : يمشي وحده ويموت وحده ، ويمت
وحده : ما خلفك !

فاخبره بعيره . فقال محمد . أن كنت من أعز أهلي على
تخلفا . لقد غفر الله لك بكل خطوة دبتا إلى أن لقيتني .

وتبدو هذه الرحمة ، وهذا العفو في حادث « حاطب بن أبي بلتعة » يقول عليّ ابن أبي طالب :

بعثني رسول الله أنا والزبير والمقداد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظمينة معها كتاب فخذوه . فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ ، فقلنا . أخرجي الكتاب قالت ما معي كتاب فقال . لتخرجن الكتاب أو لتزعن الثياب

فأخرجته من عقاصها فأتينا الرسول فإذا فيه : من حاطب ابن أبي بلتعة إلى الناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله . فقال . يا حاطب ما هذا قال : يا رسول الله لا تعجل عليّ . أني كنت أمروا ملصقا في قومي . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهليهم فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب منهم يدا يحمون بها قرابتي ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتداد عن ديني

قال محمد : انه صدقكم .

قال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق .

قال محمد ، انه أشهد بدرأ ، ومن يدريك لعل الله عز وجل
اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتهم لكم .

ونتمثل الرابطة بين القائد وأتباعه في تكتم خطط الحرب
والعمل .

لا خرج لفتح مكة تجهز الناس من غير أن يعرفوا وجهتهم
حتى نزل رسول الله بالوجه (مكان) والذاس لا يدرون أين
يتوجه إلى قريش أم إلى هوازن أم إلى ثقيف .
وجاء كعب وأنشد شعرا ليعلم الوجه فتبسم محمد ولم يزد .

وعندما رأى المؤمنون « الأحزاب » في غزوة الخندق ، وقد
رسمهم من قوس وأحده قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق
الله ورسوله وسازادهم إلا إيماناً وتسليماً .

ومن لفقاته البارة أنه يرسل أبا سفيان إلى الطائف ليحطهم
الأنعام وقد كان من أعدى أعداء الإسلام قبل ذلك بقليل .

وقد بلغت رابطة الحب والإخاء في نفس زيد بن حارثة مبلغا
جمله لا يمود إلى والده الذي عاد بعد غيابه ولم يفضل بمحمد أحداً
وحين عرض على الصديق أن يزوجه ابنته طفق يسأل : هل يجوز
أن يزوج ابنته لمحمد وهو أخ له حتى بين له الرسول أن الإخاء في
الله لا يمنع من النسب .

وقد عبر محمد عن محبة أبي بكر بأوفى عبارة حين قال (ما
أحد أعظم يدا عندي من أبي بكر واسأني بنفسه وماله وأنكحني
ابنته »

ويشجلى هذا في فرحة بلال عندما جاءه الموت فقد كان
يهتف في فرح وجور . غدا ألقى الأحبة : محمداً وصحبه .

ولم يكن هذا غريباً فقد كان في سماحة . الرسول وأريحته
يشاشته ما يفجر الماء من هذه القلوب المتحجرة الصلبة
بإدلتها حبا بحب ووفاء بوفاء



ولقد كان ذلك القائد أبعد الناس عن مطامع الحياة فلا عجب

أن يغرى ذلك أصحاب المثل العليا بالإعجاب . رجل يمرض نفسه للحتوف والمخاطر والخصومات ويحتمل الأذى في أشد صورهِ قسوة ومرادة في سبيل فكرة لا مطعم من وراءها .

وكان إلى ذلك يحلب شانه بيده ويرقع ملابسه ويخفف نعله وقد عمل في المسجد والخندق بيده وحمل التراب وجمع الحطب وكان يردف خلفه . ويكره أن يتمثل له الناس قياما . ويجلس حيث ينتهى به المجلس . وإذا مشى مشى الناس من أمامه وحوله وكان يدخل الداخل إلى المسجد فلا يعرف محمد من بساطته حتى يسأل أيكم النبي . هذا إلى بساطة في الطعام والملبس وبشاشة في المقابلة فلا ينزع يده حتى يسكون الآخر هو الذي ينزعها ، ولا ينصرف حتى يسكون محدثه هو المنصرف ، وإذا أشار إلى أخطاء الناس لم يذكرهم



كل هذا إلى فصاحة ووسامة ودمائه وصباحه ، فهو « الجواد حين يُسأل » والحليم « حين يستجمل » . « والبر » بمن يعاشر ، إلى ثقة بالله لاحد لها فلا يقبل المساومة وهو في حاجة إلى نصير

واحد . ولا بجاملة على حساب الدعوة . مع وضوح في الفهم
ونصاعة في العبارة وحرص على سلامة الجماعة ، وامتزاج روحى
وطافى . ومشاركة في السراء والضراء . كل هذا جمع القلوب
حول حبة مخلص ورفية .

ولقد تنافس الحيان (الأوس والخزرج) على مرضاة رسول
الله حتى قبل أن الأوس كانت لاتصنع شيئا فيه عن رسول الله
غناء إلا قالت الخزرج والله لاتذهبون بهذه فضلا علينا عند
رسول الله في الإسلام

ولم تجتمع شبه الجزيرة يوما في تاريخها كله على زعيم قبله ،
ولم يكن مصدر هذه الزعامة إلا الصبر والفقر

عن ابن عباس أن رسول الله دخل على أم هانئ يوم فتح
مكة وكان جائعا فقال لها : أعندي طعام

قالت . إن عندي لكسرة يابسة . وانى لأستحي أن
أقدمها لك .

فقال . هلمها .

فكسرها في ماء وجاءته بملح . فقال . ما من أدام ا

قالت ما عندي إلا شيء من خل .

قال : فهلميه :

فلما جاءت به « صبه على طعامه فأكل منه ثم حمد الله وأثنى

عليه وقال .

نعم الادم الخل يا أم هانئ . لا يقفر بيت فيه خل وهذه

كانت مائدة الرسول يوم الفتح الأكبر .

...

ولذلك لم يكن عجيباً على أمثال عمر و خالد وعمر والزبير وطامعه

وكلهم من ذوى الحجى والمقول الراسخة أن يكونوا جنوداً له

وقد أسلم خالد وهو من أبطال قريش المغاوير ولكنه رضى أن

ينضوى جندياً فى الصف . ولم يصل إلى مركز القائد إلا بعد أن

جاء دوره الطبيعى .

وقد بلغ من حب أصحابه له أن يخشى ثوبان « فراقه » في الآخرة فأناه يوما صاحب اللون ، فسأله عن حاله فقال :

« يا رسول الله ما بي من وجع غير أني لم أرك أشقت واستوحشت وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأنني إن دخلت الجنة فأتت تكون في درجات النبيين فلا أراك .

فابتسم محمد وأنزل الحق قوله : « ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

• • •

وبلغ من حب أبي أيوب الأنصاري ل محمد أن يكبر عليه أن يقيم هو بالدور الأعلى والرسول من أسفله ، وقد أقام عنده عند قدومه إلى المدينة .

ويروى قصته فيقول : لما نزل رسول الله في بيتي نزل في الأدنى وأنا وأم أيوب في الأعلى . فقلت له يا رسول الله : بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي فأظهر أنت فكُن في الملو ونزل نحن فنكون في السفلى .

فقال يا أبا أيوب : أن أرفق بنا وبين يفسانا أن نكون في أسفل البيت .

ولقد انكسر جب لنا فيه ماء فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا . مالنا لحاف غيرها ، فنشف بها الماء نخوفا من أن يقطر على رسول الله منه شيء ، فيؤذيه .



ويذهب عمر ليستأذن رسول الله في أداء فريضة الحج فيقول له الرسول : لا تنسنا يا أخي من دعائك فيقول : لم تطلع على شمس يوم أعظم من هذا اليوم .

وبخشي أبي أيوب خالد الأنصاري على رسول الله ليلة عرسه بصفية ابنة حي بن أخطب ، فبييت حول خيمته متوشحا سيفه

فلما أصبح الرسول وسأله مالك ؟ قال خفت عليك من هذه المرأة وقد قتلت أباهما وزوجها .

وتطوى أم حبيبة ابنة أبي سفيان زوج النبي فراش رسول الله من أبيها . فلما سألتها . أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها .

قالت . هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه .

قال . لقد أصابك يابنية بعدى شر كثير .

ويقول سمع بن عبادة وهو يتكلم قبل « بدر »

يا رسول الله . إنا قد خلفنا من قومنا قوما مانحن بأشد حبا لك منهم ، ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة في الجهاد ونية ، ولو ظنوا يا رسول الله أنك ملاق عدوا ما تخلفوا ولكن إنما ظنوا أنها المير .

يا رسول الله . نبني لك هريشاً فتكون فيه ونعد عندك رواحلك ثم نلقى هدوننا فإن أعزنا الله وأظهرنا عليه كان ذلك

ما أحببنا وإن تكن الأخرى جلست على رواحك فلهجت
بمن ورائنا .

ثم يقول سعد :

إننا قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به حق
فاعطيناك موثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فامض يا نبي
الله لما أردت ، فوالذي بيمثك بالحق لو استمرضت بنا هذا البحر
نخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وصل من شئت ،
واقطع من شئت وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت من
أموالنا أحب إلينا مما تركت .

والذي نفسى بيده ما سلك هذا الطريق ومالى بها علم ،
وما نكره أن نلقى عدونا ، وإنا لصبر في الحرب ، صدق عند
اللقاء ولعل الله يريك منا بعض ماتقر به عيناك .

وهذا « صهيب » لما أراد الهجرة من مكة ، قال له
كفار قريش . أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثير مالك عندنا وبلغت الذي
بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك . والله لا يكون هذا ! .

وتبلغ حماسة إيمانه وحبه لقائده فيقول : أرأيتم إن جعلت
لكم مالى ، أتخلون سبيلى .

قالوا : نعم . قال فأتى . قد جعلت لكم مالى
فبلغ ذلك رسول الله فقال . ربيع سهيب . ربيع سهيب

وبلغ من حب « عثمان بن مظعون » لحمد أن رد جوار الوليد ،
وقال له . يا أبا عبد شمس . وفدت ذمتك وقد رددت إليك جوارك

قال الوليد : يا ابن أخى . لعله آذاك أحد من قومي ؟
قال عثمان : لا . ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن
أستجير غيره

قال الوليد : فانطلق بنا إلى المسجد فاردد جوارى علانية كما
أجرتك علانية .

وما لبث أن أخذ « لبيد بن ربيعة » ينشد فى قريش :
« ألا كل شيء ما خلا الله باطل » قال عثمان صدقت : « وكلّ نعيم
لا محالة زائل » قال كذبت . نعيم الجنة لا يزول أبداً .

فأطعمه لبيد على عينه فاختضرت ،

فقال له الوليد : لقد كنت في غير حاجة إلى ما حدث لك
لو بقيت في جوارى ، قال عثمان : والله إن عيني الصحيحة لفقيرة
إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإنى لفي جوار من هو أعز
منك وأقدر .



ومن هذا الحب ما صنع « عمير بن عدي » الأعمى ، فقد كان
يفيظه أن تؤذى « عصماء بنت مروان رسول الله ، وتعيب
الإسلام ، فنذر عمير لئن رد الله رسول الله من بدر إلى المدينة
ليقتلها .

فلما رجع النبي من بدر جاءها ليلا حتى دخل عليها بيتها ،
وكان ضريراً ثم نحى الصبي عنها ، ووضع سيفه في صدرها حتى
أنفذه من ظهرها ، وأتى فصلي الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم .
فلما انصرف نظر محمد إليه وقال . نصرت الله ورسوله يا عمير
فقال : هل على من شيء في شأنها ؟

قال محمد : لا ينتطح فيها هنزان

قال لأصحابه : إذا أحببتهم أن تنظروا إلى رجل نصر الله
ورسوله بالغيب فانظروا إلى صير بن عدي ، قالوا يا صير ، أنت قتلتها
قال . نعم فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ! فوالذي نفسي بيده
لو قلتم ما قالت لضربتمكم بسيوفي هذا حتى أموت أو أقتلكم .

أما « أبو دجانه » فقد ترس عن النبي بظهره في غزوة
(أحد) والنبل يقع عليه من كل مكان وهو لا يتحرك .

وبلغ هذا الأيمان الصادق أن قال عبد الرحمن بن أبي بكر
لأبيه . لقد لقيتك في بدر وكان عبد الرحمن في صفوف المشركين
فأعرضت عنك قال أبو بكر . ولكني والله لو رأيتك ما أعرضت
عنك .

ولما اعتقل المشركون خبيبا قالوا له : آتحت أن محمداً مكانك
وأنت جالس في بيتك . قال والله ما أحب أن تشوك محمداً شوكة
وهو في مكانه . فلما هدد بالقتل . قال : والله إن قتلي في الله لقليل
فجملوا وجهه من حيث جاء . قال ما صرفكم وجهي عن القبلة .

ودار بوجهه . وقال : اللهم إني لا أرى إلا وجهه عدو . اللهم ليس هاهنا أحد يبلغ رسولاك عنى السلام فبلغه أنت عنى السلام .

ولما فطم المسلمون بنى النضير ، بعث محمد إلى الأنصار وخطبهم وذكرهم بما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم إياهم في منازلهم وإيثارهم على أنفسهم .

ثم قال : إن أحببتكم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله على من بنى النضير . وإن أحببتهم أعطيتهم وخرجوا من دياركم . ويقول سعد بن عباد : يا رسول الله بل تقسم للمهاجرين وتجعلهم في دورنا كما كانوا . وتنادت الأنصار : رضينا وسلمنا رسول الله .

وقد بلغ حب حمزة وعمر وأبي بكر لمحمد مبلغه . عاد حمزة من سفره فعلم أن قريشا آذت محمداً ففلاؤه الغضب واتجه إلى الكعبة . ولم يقف مسلماً على من كان حوله كمادته .

بل قصد إلى أبي جهل فدفنه بالقوس فشج رأسه ثم راح
يعلمن إسلامه .

أما عليّ فقد افتدى محمداً ليلة الهجرة وقريش تقامر على قتله
فبات في فراشه بعد أن تسجى ببرده الأخضر .

ومثل هذا موقف أبي بكر في النار حينما كان يزعمه وقع
أقدام الباحثين عن رسول الله . وهو معتصم بالنار فيقول محمد
لأبي بكر . لا تحزن إن الله معنا . ما ظنك بأتنين الله ثالثهما ؟
فيجيب أبي بكر : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد . أما إن
قتلت أنت فقد هلكت الأمة .

فيرد الرسول لا تحزن إن الله معنا .

ولقد بلغ بأبي بكر حبه للنبي ، مبلغا لا يدانى ، فقد كان
يستأذن في الهجرة فيستأخره الرسول . ويقول له انتظر . لعل الله
يجعل لك صاحبا .

ولقد دفعه ذلك إلى أن يشتري دابتين ويمدهما للرحلة ثقة منه
أنه سيكون رفيق الرسول .

حتى جاءه النبي في الهجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها ،
فلما رآه أبو بكر . قال . ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلا لأمر
حدث . قال . فلما دخل . تأخر له أبو بكر عن سريره .

قالت عائشة فجلس رسول الله ، وليس عند أبي بكر إلا أنا
وأختي أسماء .

فقال رسول الله : اخرج عني من عندك .

قال : يا رسول الله : هما ابتئى . وما ذاك فذاك أبي وأمي .

قال : إن الله قد أذن لي في الخروج وفي الهجرة .

قال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله .

قال : الصحبة . .

قالت عائشة فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً
يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ .

قال الصديق : يا بني الله : إن هاتين راحلتان قد كنت

أعدتها لهذا . فانطلق هو ورسول الله إلى غار « ثور » . وجعل

عبد الله بن أبي بكر يقضي نهاره في قريش حتى إذا أمسى أخبرهما

الخبر ولقي عامر بن فهيرة يرمى أغنامه ثم يرميها عليهما (يأتيهما)
إذا أمسى في الفار .

وجاءه جابر في غزوة الخندق . وقد رأى رسول الله خيما
(جائما) فأتى امرأته فأخبرها ما رأى من خص رسول الله فقالت :
والله ما عندي إلا هذه الشاة ، وقدح من شعير قال : فاطبعني
وأصلحي . فطبعخوا بمضها . وشووا بمضها وخبزوا الشعير .

فأتى جابر إلى النبي : فقال : يا رسول الله قد صنعت لك
طعاما فأت أنت ومن أحببت من أصحابك فشبك رسول الله
أصابه بين أصابع جابر وقال : نادى في الناس !
وقال الرسول : أجيئوا جابر يدعوكم فاقبلوا معه .



وقدم الناس محمدا عن أهلهم دون أن يترددوا . عاد مصعب
ابن عمير فبدأ بمحمد . فأرسلت إليه أمه تقول .
أتقدم بلداً أنا فيه لا تقدم بي .
فقال . ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله .

فخاصته ولكنه كان مقتنعا بأن رسول الله أولى بالمؤمنين
من أنفسهم وأهلهم

• • •

وبلغ الأمر أشد من هذا فقد طلب محمد إلى المسلمين بعد
(أحد) أن يخرجوا . وأرسل إليهم من يقول أن رسول الله
يأمركم أن تطلبوا عدوكم ، ولا يخرج ممنا إلا من شهد القتال
بالأمس .

فقال . أسيد بن خضير : وبه سبع جراحات يريد أن يداويها
سما وطاعة لرسول الله . ولم يرج إلى دواء .

وفي غزاة بني قريظة مادك فنادى رسول الله .

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين المصر إلا ببني قريظة »
والناس في المسجد يوقدون النيران يتكمدون بها الجراح فلبثوا
أن تركوها وانصرفوا إلى أمر رسول الله .

ولعل أبرز مواقف الصلة بين محمد وأتباعه . موقف البيعة

ويسجل القرآن البيعة فيقول « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله »
ويقول الرسول « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة
إقرءوا إذا شئتم . النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فإيما مؤمن
مات وترك مالا فلورثته . ومن ترك ديناً فليأتني فأنا مولاه »

وأظهر بيعتان في عهده . هما بيعة العقبة وبيعة الرضوان .
وقد روى المؤرخون أمر بيعة العقبة الكبرى هكذا

« واعد لهم رسول الله إذا هدأت الرجل أن يوافوه في الشعب
الأيمن إذا انحدروا من « منى » بأسفل العقبة ، وأمرهم إلا ينهبوا
نأماً ولا ينتظروا غائباً . فخرج القوم بعد هدأة يتسللون . الرجل
والرجلان ، وقد سبقهم رسول الله إلى الموضع ومعه العباس بن
عبد المطلب . ليس معه أحد غيره فكان أول من طلع على رسول
الله . رافع بن مالك الزرق .

ثم توافى السبعمون ومعهام امرأتان . فتكلم العباس فقال .
 إنكم قد دعوتم محمداً إلى مادعونوه إليه . ومحمد من أعز الناس
 في عشيرته ومنعه في بلده . وأنه قد أبى إلا الانحياز اليكم والحق
 بكم . فان كنتم ترون أنكم ترون وافون له بما دعوتوه إليه
 وما نموه ممن خالفه فانتم وما تحملتم وان كنتم ترون أنكم
 مسدوه وخاذلوه بعد الخروج فمن الآن فدهوه لأنه في عز ومنعة في
 قومه وبلده

ثم قلى رسول الله القرآن . ودعاهم إلى الله ورغبهم في الإسلام
 وذكر الدين اجتمعوا له . ثم تكلم بعد ذلك أبا الهيثم بن التيهان
 وأجاب إلى ما دعا إليه الرسول وصدقه . وقالوا تقبله على مصيبة
 الأموال وقتل الأشراف

ولنطوا . . فقال العباس وقد أخذ بين الرسول . احفظوا
 جرسكم فان علينا عيونا . وقدموا ذوى أسنانكم فيكونون هم
 الذين يلون كلامنا منكم فاننا نخاف قومكم عليكم .
 ثم إذا بايتم فانصرفوا إلى مجالسكم . فبايعهم الرسول على

السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره » وأن نقول الحق أين كنا ، لا نخاف في الحق لومة لائم .

(ثم بايعهم رسول الله على أن يعموه منه نساءهم وأبنائهم ووقف زعيم الخزرج فقال لإخوانه : يا معشر الخزرج أعلمت هلام تبايعون هذا الرجل . انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم إذا أنهكت أموالكم مصيبة . وأشرافكم قتلًا مسلمة . فمن الآن فدعوه : فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

فأجاب القوم : اننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فإنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك .

قال رسول الله : الجنة . .

ومدوا إليه أيديهم فبسط يده فبايعوه . وكان أول من ضرب على يد رسول الله البراء بن معرور .

قال الرسول : اخرجوا لي اثني عشر نقيبا يكونون علي من

فوقهم . وان موسى أخذ من بنى إسرائيل اثني عشر نقيبا
فلا يجدون أحد منكم في نفسه أن يؤخذ غيره ، فلما اختارهم قال :
انفضوا إلى رحالكم .

قال سعد بن عباد : يا رسول الله . والذي بعثك بالحق إن
أحببت لتميآن خدأ على أهل « منى » بأسيا فئا ، وما أحد عليه
سيف تلك الليلة غيره .

قال الرسول لم تؤمر بذلك . فانفضوا إلى رحالكم .



أما في « بيعة الرضوان » فقد أرسل النبي عثمانا ليقنع قريش
بدخول مكة ، فلما طال مكثه وقد بلغه أنه قتل قال . إن الله أمرني
بالبيعة . فأقبل الناس يبايعونه حتى تدالوا فما بق لهم متاع إلا
وطئوه . ثم لبسوا السلاح وهو معهم قليل .

وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها .
وكان رسول الله يبائع الناس ، وهر بن الخطاب أخذ بيده فبايعهم
على الموت . وكان أول من بايع سنان ابن أبي سنان . ووهب

ابن محصن . فقال يا رسول الله . أبايعك على ما في نفسك فكان رسول الله يبايع الناس على بيعة سنان .

وكان الرسول يبايع تحت الشجرة الخضراء .

ورأت عيون قريش سرعة الناس إلى البيعة وتشميرهم إلى الحرب ، فاشتد رعبهم وخوفهم ، وضرب رسول الله بيده الأخرى وقال — هذه بيعة عثمان .

ولما نفر الناس في غزاة حنين عن سهام المشركين التي استقبلوهم بها في عمارة الصبح وتفرقوا عن رسول الله ناداهم بصوت العباس : يا أصحاب بيعة العقبة . يا أصحاب بيعة الرضوان فما أن صك أسماع الناس اسم البيعة حتى عادوا مسرعين يرددون « يا لبيك . يا لبيك »

الرسول مع خصومه

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي
وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب
المستضعفين وأنت ربي . إلى من تسانني . إلى بعيد
يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن
بك علي غضب فلا أبالي .

« ولكن عافيتك أوسع لي .

« أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات .
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي
غضبك أو يحل عليّ سخطك » لك العتبى حتى
ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

« دعاء النبي عند حائط ثقيف »

لقى محمد من كيد الخصوم ومكر المنافقين عنتا وإرهاقا بالنين ، حتى لقد ألزموه حائط ثقيف يدعو الله دعاء الحار المتدفق الذي يصور مدى ما بلغه النبي المؤيد بالوحي ، من ضيق . ولقد دفعه هذا المكر إلى أن يهاجر من مكة وهي أحب أرض لله إلى الله وأحب أرض الله إلى الرسول ، ولولا أن أهلها أخرجوه منها ماخرج .

وتجملت عليه في موقعة الخندق الأحزاب كلها رمته العرب كلها عن قوس واحدة . مضت تتآمر بجمعة وتحالف لتقاومه ، وتكيد له ، ولكن مجدداً لم يلبس . ولم يصرفه ذلك عن دعوته . وتلقاه صابراً : واحتمله محتسباً راضياً . وظل يواجه تكاليف النبوة وأعباء الدعوة في صبر وثقة بنصر الله أتم الله له الفتح ، وملكه نواصي خصومه وأعدائه . فما زاد عن أن قال لهم : اذهبوا فانتم الطلقاء .

ولقد أُر عنه أنه كان يدارى المنافقين ولا يواجههم بالخصومة ،
ويبش في وجوههم

وعندما طلب إليه أن يملنهم قال : لم أبحث فاحشاً ولا متفحشاً
ولا لماناً ولا سخاباً بالأسواق وإنما بمثل هاديا ورحمة . كما
عفا عن الرجل الذي رفع السيف فوق رأسه وهو نائم . وقال
لعمرو عندما أشار بقتل عبد الله بن أبي : أريد أن يقول الناس :
إن محمداً يقتل أصحابه .

• • •

ويمرّف مقاتل الرجال : فيحبس أبا سفيان عند خطم الخيل
حتى ينظر إلى المسلمين . وقد جعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة ،
وأبا سفيان يسأل العباس : من هذه ؟ .

فيقول : هذه غفار . هذه جهينة . فيقول ومالي والغفار . مالي
ولجهينة حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها . قال من هذه ؟ قال هؤلاء
الأنصار عليهم سعد بن عباد ومعه الراية . فأخذ أبا سفيان ولم
يلبث أن قال :

لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عباس الغداة عظيماً .

• • •

وهو عندما تآزمه الأمور يتجه إلى الله :

« اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة . وشيبة بن ربيعة . والوليد بن عتبة . وأمية بن خلف وابن أبي معيط ومهارة بن الوليد . ويقول : اللهم هذه قريش قد أقبات بخيلائها ونفخها تحاول وتكذب رسولاك : اللهم فنصرك الذي وعدتني »

وفي مواقف الرحمة يقول :

« اللهم أذنت أول قريش نكالا فأذق آخرهم نوالا ... »
« اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

وقد بلغ الأمر في الخصومة بينه وبين قريش حداً لم يصل يوماً ما بين فريق وفريق فقد ألقوا عليه التراب وحاولوا قتله واتهموا زوجه بالإفك . واتهموه بأنه ساحر وكذاب ومجنون ، وسقوا أصحابه كؤوس الملقم خلال ثلاثة عشر حجة ومع ذلك فلما أمكنه الله منهم عفا عنهم

لَقِيَ الرسول منذ اليوم الأول لدعوته خصوما وأعداء يكيدون له ويحسدونه ويحقدون عليه ، ما وسمهم الكيد والحسد والحقد .

وكان آل محمد من قريش ، وأعمامه ، أول خصومه ، وامتدت خصومة قريش لريبتها ثلاثة عشر عاما كاملا في مكة ، فما كان يشغل قريشاً إلا هذا الأمر الجديد الذي جاء به محمد ، فهي مصبحة وممسية ، وهو حديث سرها وجهرها ، ونجواها في نأديها وقصتها التي لا تنهى .

ولما انتقل الرسول إلى المدينة واجهته خصومة من نوع آخر ، ممثلة في اليهود والمنافقين .

وبدأ الاضطهاد في مكة حين حوَّص المسلمون في الشعب ثلاث سنوات لا يباع لهم ولا يبتاعون ، حتى اضطر أغلبهم إلى الهجرة للحبشة ، واضطر محمد بعد موت عمه أبي طالب إلى

الهجرة للعطائف يطلب النعمة ، فلم يلق إلا لونا جديداً من العنت والأذى .

وكان أبو لهب يعضى وراء محمد يحرض عليه كل من يستمع إليه ، فلما عزم المسلمون على الهجرة دبرت قريش تلك المؤامرة الضخمة لقتل الرسول . وترصدوا له حول حجراته حتى علموا أن علياً هو النائم في فراشه والمتسجى ببرده .

وفي المدينة بدأ اليهود حملة من الحجاج والتآمر والكيد والتكذيب ، وأعانهم المنافقون الذين تظاهروا بالإسلام مبطنين له الكيد ، محرضين على حرب المسلمين ، وكان على رأس المنافقين عبيد الله بن أبي بن سلول .

وكان الرسول حريصاً على أن يفضى عن هذه المؤامرات ويعرض عنها آخذاً بالعفو آمراً بالمعروف .

ولم يأذن بمواجهة هؤلاء المنافقين إلا بعد طفق الكيل وخيف على الدعوة نفسها .

ويتجلى حرصه على مواجهة خصومه بالرفق في صالح المدينية
فقد أملى الرسول إلى كاتبه أن يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم »
فقال سهيل سفير قريش : ما الرحمن الرحيم ! اكتب
باسمك اللهم .

ولما ذهب يملئ عليه : قال النبي اكتب :

هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .. قالوا : لو شهدنا أنك
رسول الله لم نقاتلك ولكن اكتب باسمك وباسم أبيك . (ورضي
النبي . والمسلمون غاضبون يكاد الحق يذهب بألبابهم .



ومضى محمد رحيباً بأعدائه يطاولهم ويمفو عنهم ، فقد عفا عن
فضالة بن عмир وقد أراد أن يقتله . ووضع الرسول يده على صدر
فضالة فسكن قلبه وقال : والله ما رفع يده عن صدرى حتى كان
أحب خلق الله إلى . وما أحد من خلق الله أحب إلى منه . .

وعفا عن صفوان ، إذ خرج بعد أن دخل النبي مكة هارباً
إلى البحر ، يريد أن يقتد نفسه فيه . فذهب حمير بن وهب إلى
رسول الله يطلب له الأمان ، فأمنه . فقال اعطنى آية يعرف بها

أمانك . فأعطاه عمامته التي دخل بها مكة . فأدركه صير . وهو يريد أن يركب البحر . فناداه : يا صفوان . فذاك أبي وأمي . الله الله في نفسك أن تهلكهما . فهذا أمان رسول الله قد جئت بك به . وقال اني أخافه على نفسي . قال . هو أحلم من ذلك وأكرم . فوقف على محمد . وقال صفوان . إن هذا يزعم أنك أمنتني . قال صدق . قال فاجملني بالخيار شهرين . قال أنت بالخيار أربعة أشهر .



وطلب عمر من النبي أن يخلع ثنيتي سهيل بن عمرو ، فلا يقوم خطيباً فلم يقبل النبي . . وقال لعمر . لا أمثل به فيمثل الله لي . .

وعسى أن يقوم مقاماً لا تنذه . وقد كان . فلما ارتدت العرب وهم أكثر أهل مكة . وخافهم عتاب بن أسيد حامل النبي قلم سهيل فحمد الله وأثنى عليه . ثم ذكر وفاة النبي وقال . إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فن رابنا ضربنا عنقه .

ومن أحاديث عفوه عن خصومه ، قصة « كعب بن زهير »
قال : من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله ، فكتب إليه
يخبره : أن الرسول أهدر دمه ، فإن كان له حاجة فليذهب إليه
فإنه لا يقتل من جاءه تائباً .

فلما جاء قال يا رسول الله : إن كعب بن زهير قد جاء
ليستأمنك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ذلك ، إن أنا جئتك
به ، قال نعم « قال أنا يا رسول الله كعب بن زهير .
ووثب رجل من الأنصار ، فقال يا رسول الله : دعني وعدو
الله أضرب عنقه ، ثم أنشد قصيدته « بانت سعاد » حتى قال :
أن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول
فرمى الرسول برده الشريفة إليه وعفا عنه .

وخاصمه رجال كانوا من كبار قومهم . قال الوليد بن المغيرة
أبزل القرآن على محمد وأترك أنا وأنا سيد قريش ويترك أبو مسعود
ابن صير الثقفي ونحن عظيمي القريتين . وقال أبو جهل . تنازعنا
وبنو هبذ مناف الشرف ، اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا . وأعطوا

فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الرك . وكنا كفرسى رهان .
قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء .

ولعل قصة عبد الله بن أبي سلول . من أبلغ قصص المنافقين
كان قومه ينظمون له الخرز قبل وصول النبي إلى المدينة ليتوجوه
مابقيت لهم الأخرزة واحدة عند يوشع اليهودي . قال لأصحابه
في إحدى الغزوات : لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله
ما أمرنا وجلايب قريش (من أسلم) إلا كما قال الأول . سمن
كلبك يا كلك ، أما والله لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأهر
منها الأذل ، هذا ما فعلتم حتى استغنوا ، أما الله لو أمكنهم منهم
لتحولوا إلى غير بلادكم ، وبلغ ذلك رسول الله ، وقال عمر للنبي
مر عياد بن بشر بقتله ، وقال النبي : كيف يا عمر إذا تحدث الناس
إن محمداً يقتل أصحابه .

وارتحل رسول الله في ساعة ما كان يروح فيها .

وجاءه عبد الله (بن عبد الله بن أبي بن سلول) وهو من
المسلمين ، فقال : يا رسول الله ، انه يلنني أنك تريد قتل أبي فما
يلنك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فربي به ، فإننا أحمل إليك

رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده
منى . وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعى نفسى أنظر
إلى قاتل أبى يعشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر
فأدخل النار .

وابتسم رسول الله ، وقال : بل تترفق به وتحسن صحته ! وظل
(أبى) يناوىء النبي طويلا ، وانسحب من (أحد) بمديد من
أصحابه .

فلما مات صلى النبي عليه بعد أن كفنه فى قبصه « ووقف
مريمحول بين النبي وبين الصلاة . فرده النبي .

ويقول : ألم يخبرنى الله أن أستغفر لهم أولا أستغفر «
لو علمت أنى لوردت عن السبعين غفر له لزدت .

ولسكن محمداً كان جباراً إذا واجه الخطار على دعوته حتى
 لقد كان يقتل المشركين بيده أقبل ابن خلف ، وجعل يصيح
 بأعلى صوته : يا محمد : لا نجوت إن نجنا ، فلما دنا تناول رسول
 الله الحربة من الحارث بن الصوه ، ثم انتفض كما ينتفض البعير
 فتطاير عنه أصحابه - لم يكن أحد يشبه رسول الله إذا جد الجدد -
 ثم أخذ الحربة فطمنه بها في عنقه وهو على فرسه فجعل يخور كما
 يخور الثور .

ولقد أمر بأحراق مسجد الضرار ، وكانوا قد جاءوه ليصل
 فيه فوعدهم بأن يأتيهم بعد غزوة تبوك ، وأنبأ الله بأمره في آيات
 بينات . « لا تقم فيه أبداً » فأمر أن يحرق فأحرق .

وأحرق بيت سويلم اليهودي على من فيه ، وبعث إليهم
 طلحة بن عبيد الله .

ورفض أن يقبل هدية الشركين كما رفض أن يحاربوا معه وقال لا أستعين بأهل الكفر على أهل الكفر .

وعندما انتصر المسلمون في (بدر) أزعمهم ذلك وملأ نفوسهم خوفاً وهلعاً ، وأجج الأحقاد في نفوسهم وأخذ زعيمهم كعب بن الأشرف يبكي أصحاب القليب ، ويشبب بنساء المسلمين فقتله بعض المسلمين .

واشتبك بعض المسلمين مع بني فينقاع على أثر مؤامرة دبرها اليهود لامرأة مسلمة في السوق ، وقتل مسلم وقتل يهودي .

وقد أخذهم المسلمون بالبغلة فحاصروهم حتى نزلوا على حكم رسول الله الذي أمر بقتلهم لولا وساطة عبد الله بن أبي الذي طلب إلى رسول الله قبول أجلاءهم عن المدينة فخرجوا تاركين كل ما يملكون غنيمة للمسلمين .

وحدث بعد هذا أن قتل عمرو بن أمية من بني عامر رجلين خطأ . بعد أن أجارهما رسول الله . فذهب رسول الله إلى بني النضير وهم حلفاء بني عامر في محلتهم على مقربة من قباء ، في جمع من المسلمين يطلب إليهم معاوثة في دية القتيلين .

وقد أظهروا أول الأمر الرضا والقبول ، في الوقت الذي كانوا يمدون فيه مؤامرة لقتل الرسول ، إذ سمع أحدهم إلى البيت الذي كان الرسول مستنداً إلى جداره ، فلما رأى الرسول بوادر المؤامرة تركهم وانصرف .

وأنفذ إليهم لساعته محمد بن مسلمة . وقال له : اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم : اخرجوا من بلادنا . لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما همتم من القدر بي . وقد أحللتكم مشراً فمن رنى بعد ذلك ضربت عنقه .

ولكن عبد الله بن أبي حرّص اليهود على البقاء ووعدهم بأن يماونهم بألفين من قومه ، يدخلون معهم حصونهم ويقاتلون دونهم . وأرسل حيي بن أخطب إلى رسول الله يقول :

— إننا لن نخرج من ديارنا فليصنع ما بداله .

فلما انقضت الأيام العشرة حاصر المسلمون بني النضير عشرين ليلة فلما لم تبد منهم بادرة التسليم أمر رسول الله بقطع نخيل اليهود وتحريقه . فلم يلبثوا أن سلموا بعد أن ضاع أملهم في وعد عبد الله بن أبي . وانتهى أمرهم بالجلاء تاركين مغانمهم وهاثلاتهم .

ومضت اليهود في خصومتها وعنادها . وذهب حي بن
أحطب « وسلام وكنابه بن الحقيق إلى مكة يتفاهمون مع زعماء
قريش في أمر مقاومة محمد وحربه ودعاهم نفاقهم إلى أن يقولوا :
إن دين قريش خير من دين محمد .

وطفقوا ينتقلون بين مكة وبنى مرة وفزاره وأشجع وسليم
وقيس وغيلان ، محرضين على التجمع للأخذ بالثأر من محمد ولم
تلبث أن حاصرت المدينة . . ووقعت معركة الخندق .

• • •

وفي نفس لحظات النصر نادى مؤذنه :

من كان سامما مطيعا فلا يصلين المصر إلا في بني قريظة .
وخف المسلمون وهم في جراحهم ودمائهم لحصار بني قريظة
التي نقصت العهد مع العرب أبان غزوة الخندق .
وطال الحصار خمسا وعشرين ليلة .

فلما رأى اليهود أن العون قد نفذ . وأن الحصار لا يزال
قويا ، عرضوا على رسول الله أن يقبل منهم ما قبل من بني فنيقاع
وبني النضير فأبى عليهم ذلك .

ثم قبلوا أن يجعلوا بينهم وبينه رجلا من حلفائهم واختاروا
سعد بن معاذ . وأعطوا موافقتهم على قبول حكم سعد . فحكم
سعد بأن تقتل المقاتلة . وتقسم الأموال . وتسي الذرية والنساء .
ثم حفر الخنادق وضربت أعناق اليهود . ودفنوا فيها واستأصلوا
عن آخرهم . وقسمت الأموال والسبايا على المسلمين .

• • •

ولم يتوقف محمد في مواجهة خصومه .

وإذا بهم على أبواب (خير) في عمابة الصبح في ألف وستائة .
ونادى النبي نداه الخالد :

« خربت خير . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »
وبنقت اليهود لحصار المسلمين .

وأخذ المسلمون يفضون الحصون حصنا حصنا . ومضى على
ابن أبي طالب إلى حصن « ناعم » فاقتحمه . ثم إلى حصن
« القموص » ثم حصن « الزبير » والوطيح والسلام . . ولما
لم يجد اليهود أملا ، ذلوا وسلوا .

«ووصل» خصوم محمد إلى أبعد مدى في مؤامرة « بئر

ممنة » والرجيع . فقد جاء قوم إلى الرسول يقولون له إن فينا
إسلاماً فاشياً . فابعث معنا نفرأ من أصحابك يقرءون القرآن «
ويفقهونا في الدين .

فلما أرسل محمد معهم أصحابه قتلهم !

وقد دعا رسول الله على الفادرين « اللهم اشد وطأتك على
مضر . اللهم عليك بيني وبين الحيان ورعب ورحل وزكوان
وعصيبة » .

وفي إحدى الفزوات والرسول في الطريق مكربه أناس من
المنافقين واثمروا أن يطرحوه في إحدى المقبات ، فلما بلغ تلك
المقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأخبر خبرهم . فقال للناس :
اسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع . فسلك الناس
بطن الوادي . وسلك رسول الله المقبة . وأمر عمار بن ياسر أن
يأخذ بزمام الناقة ويقودها .

وأمر حذيفة بن اليمان يسوق خلفه . قال أحدهما مامنك
يا رسول الله من سلوك الوادى . لقد كان أسهل . قال : أندري
ما أراد البارحة المنافقون . قالوا تتبعه فى العقبة فإذا أضلم لليل عليه
قطموا شمع راحلتى ونخسوها حتى يطرحونى من فوقها .
وقد رفض « محمد » أن يقتلهم أو ينقم منهم واكتفى ما به
كشف أمرهم .

مجلد الانسان

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ »

يقف

المؤرخون أمام حياة محمد ويقولون : إنما هو نبي^ﷺ يأتيه الوحي من السماء . ولكن في حياة محمد جوانب خالدة من العظمة والجلال مستمدة من شخصيته الإنسانية . ولو كانت أعمال الرسول كلها من عمل الوحي وحده ، إذن لبطل عمله كعظيم وقائد .

ذلك أن الوحي لم ينصب إلا على جانب واحد في حياة الرسول ذلك هو الجانب المتصل بشئون هذه الرسالة العليا فقد كان هذا الوحي توجيهاً لرسم القواعد الرئيسية ووضع الخطط الكبرى التي إذا ما قررت بالقرآن المنزل ترك للرسول بعد ذلك التصرف والعمل والاتصال بالناس والتفاهم معهم على طريقته الخاصة وبأسلوبه الخاص ووفق طبيعته ومقدرته وذكائه .

ومن أمثلة ذلك موقعة « بدر » هذه الموقعة الكبرى الفاصلة في تاريخ الإسلام . ذلك أن العرض المنزل من السماء قد اقتصر على قوله تعالى « إن الله يمدكم إحدى الطائفتين » . ثم ترك لمحمد بعد ذلك أن يعي أصحابه . وأن يمددة الحرب

بعد أن مضت المير . وأن يستشير لمصاحبه في الأمر . وأن يستمع إلى رأى المهاجرين والأنصار . فيرى بعضهم أن هذا الموضع الذى نزله الرسول ليس بموضع فيسأل الرسول قائلا :

أهو منزل أنزله الله . فلما قال له الرسول : أن لا قال إن هذا ليس بموضع . وأشار بأن يكون المسلمون على الماء . وخصومهم لاءاء لهم ، وأن يصنع للنبي عرشاً يكون فيه .

وقد كان لدى طبيعته الإنسانية وشخصيته أبعد الأثر في تصرف الأمور . وتوجيه دفة المعركة وإحراز النصر . وآية ذلك أن أسره لم يكن وحياً ، وأنه كان يخطئ ويصيب . وقد عاتبه الله في إذنه للمشركين في حرب من الحروب .

وعلى أنه عبس وتولى أن جاءه الأُمى . وعلى أنه قضى في أسرى بدر فأطلق سراحمهم وقبل فديتهم .

وقد كان لحمد من طبيعته الإنسانية ما حقق له الكثير من النصر ، وما وفق إليه من الوصول إلى قمة الظفر فقد أوتى الشئائل التى تجمع الاتباع وتدينهم له «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا

من حولك ، وقد وصل في ذلك إلى غاية القوة لجمع حوله القبائل المتنافرة والقلوب المختلفة .

وهذه الشخصية المحمدية المقازة القوية العارضة منذ الشباب الباكر التي عرفت بالأمانة والخلق ، وهي التي — حين أتبع لها أن تلى أمر الرسالة — صرفتها بلباقة وحكمة وسداد .

ولست إذن عوامل الحكمة واللباقة والسداد طارئة عليه أوجاءته من قبيل الوحي وحده . وإنما هي طبيعته الصادقة المفطورة على تصريف أمور الناس . هذه الأخلاق التي وسمت صاحبها بأمم الأمين منذ شبابه الباكر ، وجعلته موضع تقدير الناس ، حتى اختارته أغنى سيدات قرين لتجارتها ووثقت به .

هذه الطبيعة الإنسانية لمحمد قبل أن يجهر بالدعوة أو توكل إليه ، كانت كذلك غاية في القوة فقد اشترك في أحلاف قرين وفي حرب الفجار . وحمل السلاح منذ صغره . وكان يجمع السهام التي تقع من هوازن ويقدمها لأعمامه وكان يرمي بعضها بنفسه .

وقال بعد الرسالة : ما أحب إلى بحلف حضرتي في دار ابن
جدعان حمر النعم . لو دعيت به لأجبت

ومن هذين العاملين اللذين اشترك فيهما محمد الشاب تبدو لك
الأصول الأولى والجذور الرئيسية واضحة لشخصية الإنسان العظيم .
فيه طبيعة المحارب القوي الذي أقدم على الحرب واشترك فيها
وهو في سن العشرين . وفيه طبيعة المصلح الوفي الذي أحب أن
يكون مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه .

وقد عاش حياته كلها على هدى هذين العاملين ، كأنما هما شق
حقيقة واحدة . وهي الدعوة إلى الحق ونصره من ناصرها ونأييد
من دعا إليها والإنصاف للمظلوم وحرب الظالم والانتصاف منه

وفي شباب محمد قبل بعثته : حقائق أخرى ترسم صورة
شخصيته بجلوة واضحة . تلك هي : رعيه للغنم ورحلته
إلى الشام .

وقد أضافت هذه الرحلات إلى حصيلته الخبرة الوفيرة ،

فاستمع إلى الناس ورأى البلاد وتحدث إلى أهلها . ورويت له الأساطير والأقاصيص . وكان يلم بين آن وآخر بأسواق التجارة في مكاز وغيرها . فيلتقي بالتجار في ميادين التفاهر والجدل والحج . والتجارة من أوفر ميادين الحياة خبرة ، اتصل فيها محمد بالعدد الكثير من الاقوام من التجار وأصحاب الحول والطول ، في غير مكان من الأماكن ، وفي الشام على وجه الخصوص .

وفي خلال فترة الشباب ، عاش نقيماً لم يقترب مائة ولا منكرأ ولم يضطرب في ميادين اللهو التي كان يرتادها الشباب أيامه ، وإن كانت نفسه قد حدثته مرة بأن يهبط مكة ويلهو بها تحت جناح الظلام . غير أنه ما كاد يبلغها حتى ضرب على أذنه النوم فنام .

وكان إلى ذلك شاباً مكتمل الرجولة والشباب . وسامة وجالا ، بالإضافة إلى خلقه وطبيعته المعتدلة . فقد أعجبت به السيدة خديجة بنت خويلد . واصطفته على كثرة من استأجرت من الرجال لتجارتها . وكانت غنية ذات شرف ومال . وكان قد سافر لتجارتها فأعجبت به فدمست إليه صاحبها . نفيسة بنت منية .

هذه التي قالت له ما يمنحك أن تزوج . فقال : ما بيدي

أن أتزوج به فقالت . فإذا كفيت . ودعيت إلى الجلال والمال والشرف . ألا تجيب . قال فن هي ؟ قالت خديجة . قال : كيف لي بذلك !! قالت ذلك على .

وكان محمد في حديثه غاية في الإيجاز البليغ .

قال له أبو طالب :

« يا ابن أخي . أنا رجل لا مال لي . وقد اشتد الزمان علينا . وقد بلغني أن خديجة قد استأجرت فلاناً بـكرين . فهل ترضى لك بمثل ما أعطته » وقال محمد كلمة واحدة . ما أحببت .

وقد كان في طبيعته الإنسانية بقطة وحذر جملاء يقف من الأصنام موقف الحيرة فهو لم يسجد لها . ولم يتصل أمره بها . كما اتصل الأمر بأهل زمانه ، كان يتحنت في غار حراء في رمضان من كل عام .

وفي هذه المرة قصد إلى مكانه ، ففاجئه جبريل بالوحي وأعلن إليه الدعوة . وكان على رأس الأربعين . . . ومن ثم أصبح نبيا مرسلا .

عاش طوال حياته ، تلك الحياة البسيطة الحشنة ، كان كذلك في أول أيام دعوته ، كما كان بعد أن بسط سلطانه على الجزيرة كلها .

كان سريره من سعف النخل . وفراشه من آدم . وطعامه آية في البساطة . يرقأ ثوبه . ويكره الحرير . ويصبح أحياناً فلا يجد طعاماً فينتوى الصيام .

ويقول حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه .

وكان يطيل الصوم أحياناً حتى كانت السيدة عائشة تقول : لقد كنت أبكي رحمة مما أرى . وأمسح بيدي على بطنه مما أرى من الجوع وأقول : نفسي لك الفداء . لو تبلغت من الدنيا ما يقويك فيقول لي : مالي وللدنيا . إنما أنا والدنيا كراكب صرّ بشجرة فاستظل بها ثم مضى وتركها .

وكان آية من آيات التواضع : يحلب شاته ويخصف نمله .

وكانت حجراته مبنية من اللبن . واطئة ضعيفة . بينها حواجز
من جريد النخل ملبس بالعطين .

وقد ظل يؤكد لأتباعه أنه إنسان . أخرجهم قومه وطالبوه
بالمعجزات وقالوا له لم لا تحيي الموتى . ولا تحيل الصفا ذهباً .
ولماذا لا تفجر لنا من الأرض ينبوعاً .

فلم يزد على أن قال لهم : إن كنت إلا بشراً رسولاً

وكان من حرصه على معنى « الإنسان » أنه كان يصلي في
الليل حتى تتورم قدماه . وأنه كان يستغفر الله كثيراً . ويقول :
« إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله » .

فإذا قيل له إنه قد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر . قال :
أفلا أكون عبداً شكوراً .

وحفر الخندق ، وحمل التراب ، وشارك في إعداد الطعام .
وتبادل النياق في بدر . وكان يحرس بنفسه ثلثة في الخندق فإذا
اشتد عليه البرد دخل قبته فتدفئه عائشة ثم يخرج إلى الثلثة
يحرسها ويقول : والله ما أخشى على الناس إلا منها .

وكان يستغفر من تصرف يفعله أو كلمة يقول مؤكداً :

أنا بشر أغضب وآسف كما يفضب البشر فأيا مؤمن دعوت له
بدهوة فاجعلها له رحمة .

وكان يسترجع بعض الأمر بعد أن يقضيه ويقول : لو استقبلت
من أمري ما استدبرت ماسقت الهدى .

أفوله : « فعلت اليوم أمراً ليتنى لم أفعله . دخلت البيت (الكعبة)
فمسى الرجل من أمتي لا يقدر أن يدخله فتكون في نفسه حرازة ،
إنما أمرنا بالطواف ولم نؤمر بالدخول »

• • •

وكره على تأليه شخصيته فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم .
وإن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد
ولا لحياته .

وكان لا يقدم نفسه ولا يضع شخصه في موضع يتميز به من
أصحابه . ولما رعد منه الأعرابي زجره وقال :

إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .
وكان يردد : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد .
ويقول : الناس كلهم بنو آدم . وآدم من تراب .

وكان يكره الخروج عن الطبيعة الإنسانية . فنهى عن الصوم الطويل والقيام الطويل . ويقول إننى أصوم وأفطر وأصلى وأترقد وأتزوج . ويقول المعتصم : إنا أنا بشر مثلكم وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم يكون أباح من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك .

وكان يركب الحمار فى الأسواق ويمتقل الشاة فيحملها ويحمل حاجته . وكان يحسن صحبة من يعرفه . ويقول ما صاحب مسلم صاحبه ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته يوم القيامة .

* * *

ونصفه السيدة خديجة فتقول : « والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتسكب المدموم ، وتقرى الضيف ، وتمين على نوائب الحق » .

وكان عفوه آية الآيات فى عظمة شخصيته الانسانية :
عفا عن وحشى قاتل حمزة ، وعفا عن عبد الله بن أبى بن سلول ، وعفا عن فضالة بن عмир وقد أراد أن يقتله ، وعفا عن أهل مكة .

* * *

وكان وفيها غاية الوفاء للإنسانى ، حفظ ذكرى خديجة ، وظل يذكرها بالخير طوال حياته . وظلت حليلة السمعية طوال حياتها موضع رعايته . وكان يمد لها طرف ردائه لتجلس عليه . ولما أحس أن أبا طالب لا يستطيع أن ينفق على أولاده . تحدث إلى العباس فقال له : إن أخاك أبى طالب كثير العيال وقد أصاب الناس مآثرى من هذه الأزمة . فانطلق بنا فلنخفف من عياله ، آخذ من بيته رجلا ، وتأخذ أنت رجلا فنكفلهم . فكفل العباس جعفرأ وكفل محمد عليا

وكان لا يرد الناس عن الحديث معه مهما كان أمرهم ، حتى قيل إن امرأة كان فى عقلها شيء فقالت : يا رسول الله إن لى إليك حاجة ، قال يا أم فلان : انظرى أى السكك شئت حتى أقضى لك حاجتك ، فخلا بها فى بعض الطرق حتى فرغت من حديثها

وكان يحرص على معرفة حاجة أصحابه ؛ ويقول ليلبلغ الشاهد الغائب ، وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته



وهو كإنسان كان يحتمل نصيبه فى المركة وفى أحد أناء النبى

من كل مكان وانتاشتة الأحجار . وكسرت رباعيته وشج في
جبينه حتى غاب حلق المغفر في وجنتيه . ووقع في الحفرة على
جنبه فأصيبت ركبته . وترس أبو دجانة عنه بظهره .

وكان يقول دائماً للمتحمسين للحرب من الشباب : لا تتمنوا
للاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا اقيتموهم فاصبروا .

وفي حنين واجه المسلمون نبال المشركين في حماية الصبح .
وهي تقذفهم في قوة وعنف فكروا راجعين وحن رسول الله وهم
يفرون عن يمينه وشماله . وثبت ثباتاً عجيباً . ومضى يردد في قوة :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب



ولطالما نزل على رأى أصحابه عندما يرى أنه خير من رأيه .
حدث أن أقام المسلمون بالحديبية بضعة عشر يوماً ثم انصرفوا
فلما نزلوا عسفان أرمل المسلمون من الزاد ، وسألوا رسول الله أن
ينحروا لإبلهم فأذن لهم في ذلك

فقال عمر : يا رسول الله لا تفعل فإن يك في الناس بقية
ظهر لكن أمثل . ولكن ادعهم بأزوادهم ، ثم ادع لهم الله فيها
فوافق الرسول ، وأمر بالأنطاع فبسطت ثم نادى مناديه : من
كان عنده بقية زاد فلينثره على الأنطاع ، فكان منهم من يأتي
بالتمرة الواحدة أو يأتي بالكف من الدقيق والكف من السويق
ثم مشى الرسول فدعا فيها بالبركة .

(٣)

كان انسانا . يخطيء ويصيب . ولولا ذلك ما عاتبه الله في
أسرى بدر وأمر الاعمى .

١ — وأبرز شمائله الإنسانية : أنه انسم بالزهد واكتفى بالقليل
كما انسم بالبساطة في لقاء الأمور وفي توجيهها . إذا خير بين أمرين
اختار أيسرهما ما لم يكن إثما . يمزح ويتفكه . ولا يقول إلا حقا
وإذا تصدق وضع الصدقة في يد السائل . وكان يركب
ويردف خلفه .

٢ — عرف بقلطفه مع الأطفال والصغار . والصبر على جفوة
القريب في منطلق رسالته ، لا يواجه احداً بما بكره . ويحيب دعوة
الداعي ، ويمود المريض . ويقبل العذر ويتجاوز عن السيئ .
ويعطى من مثله ، ويصل من قطعه . ويبذل لمن حرمه . ويقضى
طرفه عن الأذى وكان أجود من الريح المرسلة .

٣ — إذا أقبل جلس حيث ينتهى به المجلس . ويمد طرف

ردائه لضعفه ويحجب شانه ويخسف نعله ويحب التيمن في كل شئ ، في طهوره وتنقله وترجله .

٤ — يذكر الله في كل حال . إذا استيقظ وإذا نام وإذا مشى وإذا خرج من مسجده وإذا دخل المسجد . وإذا لبس أو خلع لباسه . لقي الناس بحسن القبول والافتناع .

وقد صور القرآن إنسانيته في قوله « قل : لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » إن أنا إلا نذير «

مع اہلہ

» خیرکم خیرکم لأہلہ «

حدیث شریف

كان في بيته مثلاً للرجل الكريم . تزوج من خديجة وعاش معها حتى مات دون أن يتزوج غيرها .

وكان قد سافر في تجارة لها فلما عاد رابحاً سمعت من خادمها سرور عن خلقه فأرسلت صاحبها تدعوه إلى زواجها ، فزوجه إياها عمها عمرو بن أسد بن عبدالمزى وقال هذا الفحل لا يقرع أنفه (أى كف كريم لا يرد)

ووجد في زوجه (خديجة) الحب والوفاء خلال حياة امتدت خمسة عشر عاماً ، رزق منها القاسم وعبد الله ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة .

ولقد وقفت منه عندما جاءت الرسالة أكرم موقف .

« أبشر يا بن عم واثبت . فوالذى نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تسكون نبي هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتصديق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتمين على نوائب الحق » .

وقد كانت خديجة عوناً للرسول خلال أعوام الاضطهاد الأولى
حيث أقامت معه في شعاب بني عامر ثلاث سنين .

وعندما ماتت خديجة تركت في نفس « محمد » أعمق عواطف
الود التي لم تذهب . ويوم قدمت ابنته قلادة أمها خديجة فداء
لزوجها نظر إليها في حنان وقال إذا استطعتم أن تطلقوا أسيرها
وتردوا لها قلادتها فافعلوا .

قالت عائشة : إن النبي كان لا يكاد يخرج من البيت حتى
يذكر خديجة وأقبلت هاله أخت خديجة لزيارة المدينة . وسمع
النبي صوتها في فناء بيته وكان يشبه صوت الراحلة . فهتف يقول :

« اللهم هاله »

قيل فما ملكت « عائشة » أن قالت : ما تذكرين من
عجوز من عجائز قريش همراء الشدقين ، هلك في الدهر ، أبدلك الله
خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس وصدقتني إذ كذبتني الناس
وواستني بما لها إذ حرمني الناس . ورزقني الله عني خير الجزاء .
اللهم كافى خديجة بنت خويلد «

قالت عائشة : « والله لا أذكرها بعدها أبداً » .

وكان إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة فحدثته عائشة في ذلك : فقال : إني لأحب حبیبها .

وقالت عائشة له مرة : كأن لم یسكن فی الدنيا امرأة إلا خديجة !

فرد عليها صلى الله عليه وسلم « إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد » وحتى يوم الفتح . . وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنوات كان النبي يختار مكاناً إلى جوار القبر الذي أودع فيه زوجته الأولى .

وتزوج عائشة وكان فضلها على كل نساؤه الأراتى تعددن بعد إقامة الدولة في المدينة لأسباب سياسية وتشريعية .

وتقف عائشة يوم عرسها فتقول « جاء رسول الله یتنا فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء . فجاءتني أمی وأنا فی أرحه جو بین عرقین فأُزلتني . ثم سوت شعری ومسحت وجهی

بشيء من ماء . ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب وقفت
 بي حتى ذهب بعض نفسي . ثم أدخلتني ورسول الله جالس على
 سرير في بيتنا فأجلسني في حجره وقالت :

— هؤلاء أهلك فبارك الله لمن فيهن وبارك لمن فيك ووثب
 القوم والنساء فخرجوا . وبني بي رسول الله في بيتي . ما نحرت
 جذور ولا ذبحت على شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين حتى
 أرسل إلينا سعد بن عبادة بحفنة كان يرسل بها إلى رسول الله .

وكان يردد دائما كلمته « اللهم هذا قسمتي فيما أملك . فلا
 تلمني فيما تملك ولا أملك »

ووقع لمائشه أن اشترت تمرقة فيها تصاوير فلما رآها رسول
 الله قام على الباب . فلم يدخل فعرفت في وجهه الكراهية فقالت :
 يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله فإذا أغضبك قال
 فما بال هذه التمرقة ؟ قالت اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها
 فطلب إليها إلا تدعها في البيت

وكان نساءه يراجعنه حتى يظل يومه غضبان
ولقد بلغ من أمر غيرة عائشة عليه أن حمل إليها ابنه إبراهيم
من مارية القبطية وقال لها انظري إليه : إنه يشبهني فما لبثت
إن قالت : ما أرى شيئاً مما يقول .

وقد تأمرن عليه . فاضطر إلى اعتزالهن شهراً لا يجلس
إليهن ولا يكلم أحداً في شأنهن وكان يقضي أوقاته في خزانة له
ذات مشربة لا يصعد الصاعد منها إلا على جذع نخلة خشنة الدرج
فلما انقضت فترة الشهر . بدأ بمائشة وظن أنها ستلقاه بالاعتذار
أو التكريم ولكنها ما لبثت أن قالت له : يا رسول الله . أقسمت
أن لا تدخل علينا شهراً ودخلت وقد مضى تسم وعشرون يوماً .
فأجاب صلى الله عليه وسلم في بساطة : إن الشهر تسعة
وعشرون يوماً

• • •

وكان يقول لها إني لأعلم إذا كنت عني راضية . وإذا كنت
عليّ غضبي . قالت : من أين تعرف ذلك ؟ قال : إذا ما كنت عني
راضية تقولين ورب محمد ، وإذا كنت عليّ غضبي قلت ورب إبراهيم

ولكنه كان صلى الله عليه وسلم رفيقا بهن ، حانياً عليهن ،
يتفقدهن بعد صلاة العصر ويمر على منازلهن جميعا .

اختلف مع عائشة مرة ، وطلب إليها أن تحكم من تشاء . فقال
من ترضين أن يكون بيني وبينك . أرضين بأبي عبيدة بن الجراح
قالت لا . ذلك رجل هين لين يقضى لك . قال أرضين بأبيك
قالت : نعم .

فلما جاء أبو بكر . قال رسول الله : أقصمي

قالت : بل أقصص أنت

فقال : هي كذا وكذا .

قالت : أقصد

فرفع أبو بكر يده فطأهما . وقال تقولين يا بنت أم رومان
أقصد من يقصد إذا لم يقصد رسول الله . فجعل الدم يسيل من
أنفي ورسول الله يحجز بيننا

وبقول لصديقه : إنا لم ترد منك هذا . وجعل يغسل الدم
من ثيابها فلما انصرف أنجه إلى عائشة مبتسما وقال لها .
رأيت كيف أنقذتك من الرجل .

وكان غاية في بساطة الطبيعة الإنسانية مع أهله . لا يحجزه
منها ولا يحول دونهما انه نبيّ مرسل . تقول عائشة :

كان السودان يلعبون في يوم من أيام العيد بالدروق والحراب
فقال : إذا كنت أشتهي أن أنظر . قلت نعم . قال : فأقامني وراءه
خدي على خده . وهو يقول : دونكم نبيّ أرفدة حتى إذا مللت .
قال حسبك قلت نعم . قال فاذهبي .

• • •

وكان يبلغ به الطابع الإنساني غايته في البساطة واليسر أن
يداعب نسائه ويسابقهن .

تقول عائشة : خرجت مع النبي في بعض أسفاره وأنا جارية
لم أكن أحمل اللحم فقال النبي للناس . تقدموا تقدموا . ثم قال
لي : تعالى أسابقك . فسابقته فسبقته . فسكت حتى إذا حملت
اللحم . وكنا في سفرة أخرى . قال للناس : تقدموا ثم قال :
تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقني

فجمل الرسول يضحك ويقول . هذه بتلك

ولما نزلت الآية السكرية « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتم كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جيلاً . وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً » .

قال لمائشة : إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تجمل في فيه حتى تستشيرى أبوبك

قالت : وما هو يا رسول الله . فتلا عليها الآية .

قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى . بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة

وداع في خلال اعتزاله لزوجاته أنه طلقهن . فدخل صهر على ابنته وهي تبكي وقال : لعل رسول الله قد طلقك . إنه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجل أن كان طلقك مرة أخرى فلا أكلك أبداً .

وخرج عمر إلى المسجد وقصد إلى الخزانة التي كان يقيم بها الرسول ونادى بأعلى صوته .

يارباح استأذن لى عندك على رسول الله فإنى أظنه ظن أنى
جئت من أجل حفصة . والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن
عنقها .

وأذن له النبي فدخل وهو يبكى :

قال النبي : ما يبكيك يا ابن الخطاب .

فقال عمر : يا رسول . ما يشق عليك من أمر النساء .
إن كنت طامقهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل .
وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

فابتسم الرسول ؛ وقال له إنما هجرتهن شهراً .

فنزل عمر فبشر الناس وقال : إن الرسول لم يطلق نساءه .



ورفع قدر النساء . قال عمر : والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد
للنساء أمراً حتى أزل الله فيهن ما أزل . وقسم لهن ما قسم .
فبينما أنا فى أمرٍ أأنمر إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا
وكذا . فقلت لها : وما لك أنت وطاها هنا . وما تكلفك فى
أمر أريده . فقالت لى عجبا يا ابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت .
وإن ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان . .



وكان يحب بناته ويقول لفاطمة بنت محمد . سلميني ما شئت
من مالى . لا أغنى عنك من الله شيئاً .

كما كان يحب أبناء فاطمة : الحسن والحسين :

وروى أن النبي صلى فاطمال السجود . فلما قضيت الصلاة
قيل له : يا رسول الله . إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا
أن قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك . فقال :
كل ذلك لم يكن . ولكن ابني ارتحلنى فكرهت أن أعجله
حتى يقضى حاجته .

وعندما زوج علياً لابنته فاطمة وجاءت ليلة الزفاف دعا
الرسول أم سلمة فطلب إليهما أن تمضى بالعروس إلى بيت علي
وتنظراه هناك .

وصلى العشاء ثم مشى إلى دار « علي » حيث دعا بماء فقرأ
عليه بعض آى الذكر الحكيم . ثم أمر العروسين أن يشربانه
وتوضأ بالباقي ونثره على رأسيهما .

وعندما جاء العاص بن الربيع خاطباً لابنته زينب : قام
يسمى حتى دنا من غرفتها فوقف قريباً منها بحيث تسمع ولا تراه .
وقال : بنيتي زينب . إن ابن خالتك أبا العاص بن الربيع
ذكر اسمك .



وعندما عاد العاص بن الربيع من رحلته إلى المدينة واعتقله
المسلمون ذهبت « زينب » إلى باب المسجد ثم صاحت بـ «
صوتها » أيها الناس : إني أجرت أبا العاص بن الربيع « فلما
سلم من صلاته . قال : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت . قالوا :
نعم . قال : أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك
حتى سمعت ما سمعتم . وإنه ليجير على المسلمين أديانهم . وقد
أجرنا من أجارت » .

ثم انصرف فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها وزوجها
فانتحى بها ناحية وقال :

أي بنية . اكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فأنتك لا تحلين له .



(٢)

وفي حادث الإفك تمرض لمحنة إنسانية تتعلق بشرفه
الإنساني وكرامته النبوية^(١). وقد واجهها في إيمان وهدوء وسمو
نفس وقد ردت السيدة عائشة نفسها حالات الإفك فقالت :

كان رسول الله إذا أراد سفراً أفرع بين نسائه . فأيهن خرج
سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بني المصطلق أفرع بين
نسائه كما كان يصنع . فخرج سهمي عليهن معه . فخرج بي رسول
الله وكنت إذا رحل لي بعيري ، جلست على هودجي ، ثم يأتي
القوم الذين يرحلون بي ويحملونني فيأخذون بأسفل الهودج ،
فيرفمونني ، فيضمونني على ظهر البعير . فيشدونه بحباله ثم يأخذون
برأس البعير . فينطلقون به . فلما فرغ رسول الله من سفره ذلك .
وجه قافلاً . حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً . فبات به
بعض الليل . ثم أذن في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس .
وخرجت لبعض حاجتي ، وفي عنق عقد لي فيه جزع ظفار (خرز)

(١) سيرة ابن هشام .

فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى . فلما رجعت إلى الرجل «
 ذهبت التمسّه في عنقى . فلم أجده . وقد أخذ الناس في الرحيل ،
 فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه ، فالتمسته حتى وجدته وجاء
 القوم خلافاً ، الذين كانوا يرحلون لى البعير . وقد فرغوا من رحلته
 فآخذوا الهودج ، وهم يظنون أنى فيه ، كما كنت أصنع . فاحتملوه
 فشدوه على البعير . ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير
 فانطلقوا به فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب . قد
 انطلق الناس .

فتلففت بجلبابى . ثم اضطجعت فى مكان . وعرفت أن لو قد
 افتقدت لرجع إلى . فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المصل
 المسلمى وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته . فلم يبت مع
 الناس فرأى سوادى . فأقبل حتى وقف على — وقد كان يرانى
 قبل أن يضرب علينا الحجاب — فلما رآنى قال . إنا لله وإنا إليه
 راجعون . ظمينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأنا متلففة فى
 ثيابى . قال : ما خلفك يرحمك الله ! قالت . فما كلمته ، ثم قرب
 البعير . فقال اركبى واستأخر عني . قالت : فركبت وأخذ يرأس

البعير . فانطلق سريماً يطلب الرجل فوالله ما أدركنا الناس .
وما افتقدت حتى أصبحت .

ونزل الناس فلما اطمأنوا طاع الرجل يقود بي . فقال أهل
الإفك ما قالوا . فاضطرب المسكر . ووالله ما أعلم بشيء من ذلك !

ثم قدمنا المدينة « فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة »
ولا يبلغني من ذلك شيء . وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ،
وألى أبوي . لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً ، إلا أني قد
أنكرت من رسول الله بمض لطفه بي . حتى إذا اشتكيت
رحمني ، ولطف بي . فلم يفعل بي في شكواي تلك « فأنكرت
ذلك منه .

كان إذا دخل على وعندي أمي تمرضني . قال : كيف تيمك !
لا يزيد على ذلك حتى وجدت في نفسي .

فقلت : يا رسول الله « حين رأيت مارأيت من جفائه لي
لو أذنت لي . فانتقلت إلى أمي . فرضتني !

قال : لاعليك

فانتقلت إلى أمي ، ولا علم لي بشيء مما كان . حتى نكحت
من وجمي بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوما عربا ، لانتخذ في
بيوتنا هذه الكف التي تتخذها الأعاجم ، نأفها ونكرها .
إنما كنا نذهب في فصح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن كل
ليلة في حواشيهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ، وممى أم مسطح
بنت أبي رهم بن الطلب بن عبد مناف . وكانت أمها خالة أبي بكر
الصديق رضي الله عنه ، فوالله أنها لتمشى معي إذ عثرت في مرطها
فقلت : نعم مسطح . فقلت : بئس لعمر الله ماقلت لرجل من
المهاجرين قد شهد بدراً .

قلت : أو ما بلفك الخبر يا بنت أبي بكر

قلت : وما الخبر

فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك قالت قلت : أو قد
كان هذا

قلت : فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي . ورجعت .

فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي .

وقلت لأمي . يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به .
ولا تذكرين لي منه شيئاً .

قالت : أى بنية . خفضى عليك الشأن . فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها . لها ضرائر ، إلا أكثرن وكثر الناس عليها . قالت وقد قام رسول الله فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال . أيها الناس ؛ ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق . والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتنا من بيوتى إلا وهو مى .

وكان قبل ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلول « فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحننة بنت جحش وذلك أن أختها زينب بنت جحش وذلك كانت عند رسول الله ، ولم تكن من نسائه امرأة تساوينى فى المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فمصمها الله بدينها ، فلم تقل إلا خيراً . أما حننة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت .

فلما قال محمد تلك المقالة « قال أسيد بن خضير « يا رسول الله أن يكونوا من الأوس نكفيكمهم « وإن يكونوا إخواننا من الخزرج فر بأمرك .

ودعا محمد علي ابن أبي طالب ه وأسامة بن زيد فاستشارها
فأما أسامة فأثنى عليه خيراً ودعاه . ثم قال . يا رسول الله أهلك
ولا تعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . فأما علي فإنه
قال يا رسول الله ، إن النساء لكثير وأنتك لقادر علي أن تستخلف
وسل الجارية فأنها ستصدقك

فدعا رسول الله (بربره) الجارية فقام إليها علي بن أبي طالب
فضربها ضرباً شديداً وهو يقول : أصدق رسول الله .

قالت . فتقول . والله ما أعلم إلا خيراً . وما كنت أعيب
علي عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام
عنه فتأتي الشاة فتأكله .

ثم دخل علي رسول الله وعندى أبواي ، وعندى امرأة من
الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي معي . فجلس فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فأتق الله
وإن كنت قد قارفت فاسواءاً مما يقول الناس فتوبني إلى الله . فإن
فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك حتى ارتفع دمي حتى ما أحس منه شيئاً . وانتظرت أبوي أن يحببوا عني رسول الله فلم يتسكلا .
 قالت : وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي ، وأصغر شأننا من أن ينزل الله في قرآننا يقرأ في المساجد ويصلي به . ولكنني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله في نومه شيئاً يكذب به الله عني ، لما يعلم من براءتي أو يخبر خبراً .

قالت : فلما لم أر أبوي يتسكلا ، قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله فقالا : والله ما ندري بماذا نجيبه .

قالت : والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على أبي بكر في تلك الأيام . فلما أن استمعتهما على . استعبرت فبكيت . ثم قلت : والله لا أنوب إلى الله مما ذكرت أبداً . والله إنني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أني منه بريئة لأقولن ما لم يكن ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني .

ثم التمت اسم يعقوب فما أذكره . فقالت : ولكنني سأقول كما قال أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .
 فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تمشاه من الله ما تمشاه .

فجى بشوبه . ووضعت له وسادة من آدم تحت رأسه .
 فأما أنا حين رأيت منه ذلك ، فرأيت ما فزعت ولا باليت . قد
 عرفت أنى بريثة . وأن الله عز وجل غير ظالمى . أما أبواى .
 فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت
 لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس
 ثم سرى عن رسول الله فجلس وإنه لينحدر منه مثل المجان فى يوم
 شات فجعل يمسح العرق عن جبينه . ويقول :

أبشرى يا عائشة . فقد أنزل الله براءتك .

قالت قلت بحمد الله .

ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله من القرآن
 فى ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثاثه . وحسان بن ثابت . وحننة
 بنت جحش وكانوا أول من أفصح بالفاحشة فضربوا وهدم .

قوة الكلمة

قال صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلام
واختصرت لى الحكمة اختصاراً . وقالت عائشة : كن
النبي يتكلم بكلام بين فصل لو عدّه الماد لأحصاه .
عن عائشة رضى الله عنها

كان عهد غاية في البلاغة وحسن الحديث واللبانة في

الإقناع . وكانت عائشة تصف حديثه فتقول « إنه كان يسرد كسر دكم هذا . ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يجلس إليه ولو عدّه العاد لأحصاه » .

وكان هذا أبرز معلم في طبيعته الإنسانية . من أكبر أسباب نجاحه في دعوته والتفاف الناس حوله .

وكان حديثه عجبا في الإقناع والترويح عن النفس حين تضيق بأمر من أمورها لما جاءه أصحابه وقد ضافوا بأنهم فاتتهم الصلاة . قال لهم : إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء .

وعندما أعلن دعوته استهالها استهلالا غاية في اللباسة والكياسة والقدرة على مواجهة الأمور . وقف على الصفا . وكان أعلى مكان في مكة ونادى رجال القبائل . فهرعوا إليه وقالوا : إن محمداً على الصفا ينادى .

فلما اجتمعوا له قال لهم : أرايتكم لو حدثتكم بأن خيلاً
بسفح هذا الوادى تجرى ، أكنتم مصدق ؟

قالوا نعم . أنت عندنا غير متهم .

قال : فأنا رسول الله إليكم بين يدي عذاب شديد .

وآية هذا الإعجاب ما كان يفعله أبو سفيان وأبو جهل
والأخنس ، كان كل منهم يذهب إلى حيث يصلى محمداً ويقرأ
القرآن فيجلس ليستمع إليه فإذا انتهى انصرف كل منهم فإذا
بهم يلتقون وجهاً لوجه ، فيتلاحون ويتواعدون على ألا يعودوا .

فإذا الليل يجتمعهم مرة أخرى .

لما أسلم نعيم بن مسعود وكان المسلمون محاصرون فى الخندق
وكان يهوديا قال له كلمة واحدة ما أبلغها : خذل عنا ما استطعت .

ولما جاء سهيل بن عمرو ليفاوضه قال : سهل أمرهم .

ولما سبقت ناقته الغضباء لأول مرة . شق ذلك على المسلمين

وقالوا كيف يسبق هذا الأعرجي ناقة رسول الله . فقال لهم النبي :
إنه حق على الله ألا يرتفع في الدنيا شيء إلا وضعه .

وكان أبو سفيان ينتظر الإذن بالدخول على النبي عندما تأخر
به الإذن : فلما دخل قال : يا رسول الله . قد أذنت الناس قبلي
حتى ظننت أن حجارة الجندرية ليؤذن لها قبلي .

فأراد أن يرضيه فقال : أما والله إنك والناس كما يقول
الأول : كل الصيد في جوف الفرا .

فابتسم أبو سفيان وسرى عنه . وذهب غضبه .

وعندما جاء زيد بن أرقم ، وكان صغير السن يروى ما قاله
عبد الله بن أبي بن سلول : سمن كلبك يا كلك . أما والله لو عدنا
إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل .

قال له النبي : يا غلام لملك غضبت عليه قال : كلا والله .

قال : لعله أخطأ سمعك : قال : لا نبي الله .

قال : لعله شبه عليك . قال : لا والله .

وكان إذا عاد من موقعة كبر على كل شرف وقال :

تائبون . آيبون . إن شاء الله حامدون . ربنا عابدون .
أعوذ بالله من وعشاء السفر وكآبة النقلب وسوء المنظر في الأهل
والمال والولد .

وإذا خرج إلى السفر قال : اللهم أنت الصاحب في السفر
والخليفة في المين .

وكان إذا رأى المطر قال : اللهم صيبا نافعا . وإذا خاف ضربه
قال : اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على الأكام والآجام
والظراب والأودية ، ومنابت الشجر .

وإذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك
ولا تهلكنا بعذابك وإذا رأى الهلال قال : الله أكبر . اللهم
أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والسلام .

وكان إذا رأى ما يحب قال : الحمد لله الذي تم بنعمته
الصلحات . وإذا وقع له مالا يختاره قال : قدر الله وما شاء فعل .

وكان يرتجز في بناء المسجد

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وإذا حفر الخندق ارتجز

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صـلينا

فازلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

* * *

ومن كلامه البليغ قوله : لا يكن أحدكم أمة يقول أنا مع

الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن

وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن

تجتنبوا إساءتهم .

ويصف الدنيا فيقول :

« إن الدنيا خضرة حلوة وأن الله مستخلفكم فيها فناظر

كيف تعملون . إلا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمنعن

رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه . إلا أنه ينصب لكل

غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته .

ويقول : لا يعمل الله حتى تموا . وأحب العمل إلى الله مداوم عليه صاحبه ويقول « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقال « لا يقضين أحدكم بين اثنين وهو غضبان » . .

وقال « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ويجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

وقال : « إذا كان ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر » .

وقال : « حفت النار بالشهوات . وحفت الجنة بالمسكارة » .

وقال : « يسلم الصغير على الكبير . والمار على القاعد . والقليل على الكثير » .

وقال : « ليس الشديد بالصرعة . إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » .

ويقول : « إنك لن تنفق نفقة تبتنى بها وجه الله الا أجرت عليها حتى ما تجعل في فم زوجتك » .

وقيل يا رسول الله : أى الصدقة أعظم ؟ . قال : أن تتصدق
وأنت صحيح صحيح . تحشى الفقر وتأمل الغنى .

وصور رسول الله قوة الكلمة في قوله :

« إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً
يرفعه الله بها درجات . وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط
الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها في جهنم » .

ومن قوله : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان
لابد . فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي . وأمتني
ما كان الموت خيراً لي » .

وكان يزح ولا يقول إلا حقاً .

جاءه يوماً عجوز فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلني
الجنة . فقال لها : إن الجنة لا يدخلها عجوز . فانصرفت المرأة حزينة ،

فقال الرسول لأصحابه ردوها على فلما جاءت . قال : إن
الجنة لا يدخلها عجز . أما قرأت قول الله تعالى : إنا أنشأناهم
إنشاء « فجعلناهم أبكاراً ، عرباً أراباً » فانطلقت أسارى المرأة .

ولما وفد النابغة الجعدي وأنشده قصيدته الرائية وانتهى
إلى قوله :

لا خير في حلم إذا لم تكن له
بواد تحمي صفوه أن يكدرها

قال النبي : لا يفيض الله فاك : فماش مائة وثلاثين سنة
لم تنقص له ثنية .

ويقول : إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعاً . إنما يقبض
العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ رؤساء جهالاً فستلوا فأفتوا
بغير علم . فضلوا وأضلوا

ومن آيات بلاغته أنه خطب في المسجد فقال :

إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة . وبين ما هنده . فاختار ما عند الله . يريد نفسه ففهم أبو بكر ما يعنى فانشج بالبكاء وهو يقول : بل نحن نقديك بأنفسنا وأبنائنا وقال النبي : على رسلك يا أبا بكر

ومن أقواله التي يكشف إيجازها عن عظمة بلاغتها :

— من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه .

— إن لربك عليك حقاً . ولنفسك عليك حقاً . ولأهلك عليك حقاً ، فاعط كل ذي حق حقه .

— اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

— رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

— ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة . رجل أعطى بي ثم غدر ،

ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره .

— من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربة يوم القيامة .

— أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم أى الشديد فيه .

— حق الطريق : كف الأذى . وغض البصر ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

— إن الله كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قاتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته (السكين) وايرمح ذبيحته .

— آفة العلم الخيلاء

— إن الروح الأمين نفث^(١) في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها . فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطالبوه بمعصية الله .

— يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء .

(١) يريد أن جبريل نزل عليه بالوحي .

— من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر .

— استفت قلبك ولو أفنوك وأفنوك .

— دع ما يريبك إلى ما لا يريبك .

— أحبك إلى محاسنكم أخلاقاً ، الموطنون أكنافاً . الذين يَأْفُونَ وَيُؤْلَفُونَ .

— من حلم ساد ومن تفهم ازداد .

— الصدقة تقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل .

— قد تركتكم على الحنفية البيضاء ليلها كنهارها .

— ما ضلّ قدم بعد هدى إلا أوتوا الجدل .

— بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

— من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

— أسرع الدعاء ، دعاء غائب لغائب .

— رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة .

— اعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

- يسروا ولا تمسروا . وبشروا ولا تنفروا .
- اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .
- الكبر بطر الحق وغمط الناس .
- الحياء لا يأتي إلا بخير .
- الكلمة الطيبة صدقة .



ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم قوله :

- اللهم إني أسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن الإحسان أتمه ، ومن الأنعام أعمه ، ومن الفضل أعذبه ، ومن اللطف أنفعه ، اللهم كن لنا ولا تكن علينا ، اللهم اختم بالسعادة آجالنا .
- اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الحيا والمات ، اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمي إنك أنت الغفور الرحيم .

اللهم لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت ولا ينفع
ذا الجد منك الجد

— سجد لك سوادى « وآمن بك فؤادى » وهذه يدى
وما جنيت بها على نفسى ، فىا عظيم هل يغفر الذنب العظيم
إلا الرب العظيم ، اللهم هب لى قلبا نقياً من الشرك « لا كافراً
ولا شقياً » أعوذ بنور وجهك الذى أضاءت له السموات السبع
والأرضون السبع . من فجأة نعمتك وتحول عافيتك . ومن شر
كتاب قد سبق وأعوذ برضاك من سخطك . وبِعفوِكَ من
عقوبتك وبِكَ منك . لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت
على نفسك

— اللهم لك أسلمت ، وبِكَ آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك
أُنبِت وبِكَ خاسمت . اللهم إنى أعوذ بمزنتك لا إله إلا أنت . اللهم
إنى أسلمت نفسى إليك . ووجهت وجهى إليك . وفوضت أمري
إليك . وألجأت ظهرى إليك . رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ
ولا منجأ منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذى أنزلت . ونبيك
الذى أرسلت .

وفي هذه التماذج صورة لقوة الكلمة عند الرسول وقد
وصف نفسه بقوله : أعطيت فوائح الكلام وجوامع وخواتمه .
وقالت السيدة عائشة : ما كان رسول الله يسرد كمردكم
هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل ، لو عدّه الماد لأحصاه
ويحفظه من يجلس إليه .

مواقف خالدة

(١)

الاضطهاد والصبر : هما سمة المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية وأبرز صورها . الاضطهاد من جانب خصوم الدعوة . والصبر من جانب معتنقي الدعوة .

الاضطهاد من جانب المدوّ القوي المدل بقوة . المتمز بسلطانه ، الحاقد الحاسد ، الخائف المتربص . والصبر من عهد وأصحابه الذين يخافون أن يتخطفهم الناس « الضعفاء من جانب القوة السادية والسلطان . والأقوياء من جانب الإيمان بالله والثقة بنصره . والاعتزاز بدعوته .

وقى أول المرحلة وبعد أن نزل الوحي على محمد في غار حراء « وقفل راجعاً بالآيات التي ألقاها إليه الملك . يلقى ورقة بن نوفل فيقول له هذا الكلام الجديد العجيب :

« والذي نفسى بيده . إنك لنبى هذه الأمة . واقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى . ولتكذبين ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن » .

فيقول له الرسول : أو مخرجى هم .

— نعم ما جاء نبي بمثل ما جئت به إلا أؤذى وأخرج .
ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصرأ مؤزرأ .

ثم أدنى رأسه منه وقبل يا فوحه .

وهكذا استقبل الرسول أول مراحل حياته الجديدة بانتظار
التكذيب والأذى وترقب الإخراج والمقابلة .



ثم يفتر الوحى « ويترقبه الرسول فى لهفة وشوق . فإذا به
يتنزل بالجدِّ الواضح العريض » يا أيها المزمِّل قم الليل إلا قليلا ،
نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا «
إنا سناق عليك قولا ثقيلا » .

ذلك هو التوجيه للداعية ، يرسم صورة المسئولية العظمى .
ويسر الرسول بالدعوة . ويأخذ نفر قليل من المسلمين
فى الانتظام فى معسكره ، يستخفون من قريش ، ويمشون
فى الشعاب « وقريش تهزأ بهم وتظن أن شأنهم لا يعدو أن

يكون حديثاً كحديث الرهبان أمثال قس وورقة . وإن امرأ هذا شأنه لن يطول أمده .

وبعد ثلاث حجج . ينزل الوحي مؤذناً بإعلان الدعوة وإذاعتها في العشيرة والأفريين « وأنذر عشيرتك الأفريين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » فدعا أهله إلى طعام حدثهم بعده عن دعوته فأنصرفوا ساخرين .

ثم أعلن دعوته في أهل مكة جميعاً . فصعد الصفا ونادى :
« يا بني عبد المطلب . يا بني عبد مناف . يا بني زهرة . يا بني تميم .
يا بني مخزوم . يا بني أسد » .

فتنادى إليه أهل مكة يقول بعضهم لبعض :
هذا محمد على الصفا ينادى .

فلما اجتمعوا إليه قال :

— أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الوادي تجرى .
أكنتم مصدقني !

— نعم أنت عندنا غير متهم .

— فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . إن الله أمرني
أن أنذر عشيرتي الأقربين . وإني لا أملك لكم من الله شيئاً
إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله .

فقال أبو لهب في حدة وغلظة :

ألهذا جمعنا تبث يدك . فأجاب الله في قرآنه : « تبث يدا
أبي لهب وتب » الآية .



وبدا الصراع . وأخذ أهل مكة يطالبون الرسول بالمعجزات .
يطالبونه بأن يحيل الصفا والمروة ذهباً . ويحيي الموتى . ويسير
الجبال ويفجّر الينابيع . وذكر الرسول أصنام المشركين فعامها
وسخر منها .

ومن ثم بدأ الصراع يشتد . وأخذت مجامع الندوة وحق
الكعبة تمجد حديثها كله في محمد ودعوته . حديث الخصيم المتفرع
بمد أن كان حديث الساخر المستخف .

وانتهى هذا اللغط الطويل إلى أن سعى جماعة منهم إلى عمه

أبى طالب وعلى رأسهم أبوسفيان . وذكروا له كيف عاب ابن أخيه آلهم ، وسفه ديبهم . وطلبوا إليه في غضب إما أن يكفه عنهم . وإما أن يخل بينهم وبينه « ولما لم يجبههم إلى شيء عادوا إليه مرة فرة ، وطلبوه في حدة . قالوا له : إما أن تكفه وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين » .

ورأى أبو طالب أن الأمر قد انتقل إلى مرحلة جد خطيرة ، فأرسل إلى النبي وأخبره بأمر القوم وقال له فيما قال : « فابق على نفسك ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق » .

ولكن رسول الله الوائق بربه . الذي لا تزججه هذه التوافه ولا تحول مجرى التيار في نظره ، مهما كان أمر المسلمين وأمره من الضعف والعجز عن مقاومة قريش المتعسفة الظالة .

ولكن الرسول لم يكن الأمر عنده في حاجة إلى تفكير طويل أو مراجعة فأنما هو سائر في طريقه الذي رسمه له الحق . وما هذا الأمر الذي يحدثه عنه عمه إلا بارقة من بوارق نضال طويل وصراع ضخم . لذلك لم يلبث أن التفت إلى عمه وقال له :

يا عمي . والله لو وضعوا الشمس في يميني . والقمر في يساري على

أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .
وأذهل أبو طالب هذا الجواب . ومع ذلك فما وسعه إلا أن
يقول : « اذهب يا بني فقل ما أحببت . فوالله لا أسلك لشيء .
تكرهه أبداً »

• • •

ومضت قريش تصب صنوف الأذى على الرسول . وعلى
المسلمين في جرأة وقسوة . فألقى بلاء على بطحاء مكة المحرقة ووضع
الحجر فوق صدره وعذبت جارية عمر وجوارى أخرى .

وافتنى آل ياسر بالأذى حتى قال لهم الرسول . صبراً آل
ياسر إن موعدكم الجنة . لا أملك لكم من الله شيئاً »

وألقى النجس والشوك أمام بيت الرسول . وألقى على رأسه
التراب كما ألقى على عنقه . وهو ساجد — رمم الشاة المذبوحة

واتصل ذلك الاضطهاد بحياة أتباعه جميعاً فلقى كثير منهم
أشد ألوان المنة والإبذاء . ولكن الرسول وأصحابه استقبلوا ذلك

كله بنفوس صائرة محتسبة . وكان للمسلمين في ذلك الاضطهاد برسول

الله أسوة . فقد كان أشدّهم تعرضاً لأذى المسلمين وأعظمهم احتمالاً له . فاحتملوا وصبروا وهانت عليهم أنفسهم ، وودوا لو افتقدوا الرسول أو منزهه .

ودهشت قریش لهذا الصبر وهذا العزم الصمم ، وهما الحب القوی للرسول . حتى يقول أبو سفیان معجباً مهوراً : « ما رأيت من الناس أحد يحبّه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً »

وبأني حبيب إلى الرسول فيقول له : اشتد بنا الضر . فيقول الرسول : ويحكم ماذا لقيتم . لقد كان يؤتى بالرجل ممن كان قبلكم فيوضع المنشار على مفرق رأسه ما يصرفه ذلك عن دينه »

واضطرد النضال قوياً عنيفاً بين المسلمين وقریش . فلما طال الأمر ، وقد ظنوا أنه لن يطول ، لجأوا إلى الحيلة والدهاء فبعثوا إلى رسول الله عتبة بن ربيعة . فلما كلمه قال له . « يا ابن أخي : انك منا حيث قد علمت من المكان في النسب . وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعاتهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً ! إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا فلا تقطع

أمراً دونك . وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رؤياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا لك فيه أموالنا حتى تبرا — » .

فلما انتهى تلا عليه رسول الله آيات من سورة السجدة « ألم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراء . بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك . لعلهم يهتدون . »

فلما فرغ انصرف عتبة دهشاً معجباً . ورجع إلى قومه بوجه غير الذي ذهب به . وقد ملأ نفسه شعور عجيب بهذا الإيمان الهجر الذي لا رغبة تدفمه ولا رهبة تمنعه .

واشتد الإيذاء والقتل والتمذيب فأذن رسول الله في الهجرة إلى الحبشة ، فخرج إليها فريق من المسلمين على رأسهم عثمان وزوجه وقد ترك وراءه كل ما يملك فراراً بدينه . ولم تطلق قريش أمر هذه الهجرة . فأرسلت إلى نجاشي الحبشة تغريه بهم « فاستمع النجاشي إلى هؤلاء وهؤلاء . وقرأ عليه جعفر بن أبي طالب صدرأ من سورة مريم . فقال النجاشي : هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات السيد المسيح . وأن هذا والذي جاء به عيسى

ليخرج من مشكاة واحدة ودخل عمردين الله فأزعج ذلك نفوس قريش ، روحا عاصفة من الحقد والكيد ، أعلن في أثرها شعراء قريش الحرب فأخذوا يهجون النبی ، والمسلمين أشد أنواع المهجاء وأعنفه .

وأخذ زعماء قريش يترقبون موسم الحج فيذيمون عن محمد ودعوته الأقاويل . وينثرون القول فيه وفي دعوته في أسواق عكاظ والمجنة ، وأخذوا يرمون الرسول بالكهانة . ويتهمونونه بالسجعة ، ولم يقفوا عند ذلك بل اتهموه بالسحر ، وتقولوا عليه بأنه يتلو أساطير الأولين وتمقبوا وفود القبائل محمد عرض عليهم رسول الله دعوته يملأون أنفسهم وعقولهم بالشكوك والإتهامات في محمد وفي دعوته .

ولكن هل ثنى ذلك محمداً عن دعوته : اللهم لا

وأعلنت قريش على معسكر المسلمين المقاطعة الاقتصادية لتقتل المسلمين جوعاً وعرياً ، ورأت أن ذلك هو الطريق العملي لسحق هذا الفريق من التابعين لمحمد ، وكتبوا بذلك صحيفة تعاقدوا فيها

على مقاطعة بنى هاشم ، وبنى عبدالمطلب ، لا يبيعوهم ولا يبتاعون منهم وحوصر المسلمون في الشعاب أكثر من عامين . فلم يكن لذلك من أثر إلا الاحتمال والصبر وانتظار الفرج وترقب النصر . ثم وصلت الدعوة إلى ذروة الخطر ، حين أشد الأمر على الرسول فوات أبو طالب وماتت خديجة في عام واحد . ووصل إيذاء قريش إلى أشده . ورأى رسول الله على أثر ذلك أن يخرج إلى الطائف عليه يجد عند ثقيف نصرة أو متعة .

ولكن ثقيفاً كانت في لقاء رسول الله أشد من قريش مباداة وإيذاء ، فقد رده أهلها رداً غير جميل ، وأغروا به سفهاءهم وأخذوا يحصبون قدميه الشريفتين بالحصى والطوب حتى دميئنا ، فاضطره ذلك إلى حائط بنى ربيعة ، ومن ثم أخذ يدعو ربه في ضراعة الواثق ، ورجاء المظمن ، ذلك الدعاء الحار فيقول : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري . إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل لك سخطك ،
لك المتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .



وأقام الرسول أبا ما بنخله ، وكان زيد بن حارثة رفيقه في
رحلته يسأله : كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك ؟ فيقول
الرسول . يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وأن الله
ناصر دينه ومظهر نبيه .

فلما انتهى إلى حراء بث رجلا من خزاعة إلى المطعم
ابن عدي ليجيئه حتى يبلغ رسالة ربه فأجاره .

وكانت بيعة العقبة الكبرى ومن ثم أذن رسول الله للمسلمين
في الهجرة ، « حتى إذا استأيس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا
جاءهم نصرنا » .

كان ذلك عندما رأى رسول الله رؤياه . ورؤياه حق . أنه دخل البيت حاجاً معتمراً . هنالك أذن في أصحابه بالحج . وساق الهدى أمامه . وأخذ المسلمون طريقهم مابين داعين . حتى إذا بلغوا الحديدية على أبواب البلد الحرام خرجت لهم قریش تمنعهم وتحول بينهم وبين الكعبة . وتردّهم عنها . ثم تنتهى مع النبي وأصحابه إلى عقد ميثاق عرف بعقد الحديدية . وقد اتفق فيه المسلمون على أن يعودوا عامهم هذا إلى المدينة فإذا أهل عام قابل جاءوا إلى مكة ليؤدوا الفريضة . وتم في هذا العقد ، الاتفاق على المهادنة ما لم ينقض الاتفاق طرف من أطرافه فتكون الحرب . وعاد الرسول . وعاد المسلمون . بعضهم راض وبعضهم غير راض ، حتى إذا كانوا في الطريق أنزل الله عليهم آياته « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . هنالك عرف المسلمون أن الحديدية هي مقدمة الفتح . وانها بداية النصر .

فلما استدار العام أذن الرسول في الناس بأن يتأهبوا لقضاء

عمرتهم . لا يتخلف منهم أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف من أهلها أحد وهو حى . وساق النبي الهدى . وسار يلبى والمسلمون معه يلبون . والسيوف فى القراب . فلما أهلت مكة . وشاهد أهلها موكب الرسول ، خرجوا إلى رؤوس الجبال . وتركوا دورهم . وقالوا لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه .

ودخل النبي مكة من الثنية التى تطلع على الحجون . وقد ركب دابته القصواء وأصحابه من حوله . فلم يزل يلبى حتى استلم الركن .

وكانت قريش قد تحدثت بأن المسلمين فى جهد . وأنهم يثرب أسهكتهم . فاضطجع النبي بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال : « رحم الله امراء أراهم اليوم قوة »

فلما انتهى إلى البيت دنا من الركن فاستلمه بمحجنه ، وهو مضطجع بثوبه . وهروى هو والمسلمون فى الثلاثة الأشواط الأولى . وكان ابن رواحة يرتجز فى طوافه وقد أخذ بزمام الناقة . فقال النبي : قل يا ابن رواحة : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

فلمّا قضى النبي طوافه خرج إلى الصفا . فسعى على راحلته ووقف قريباً من المروة . ثم دخل البيت فلم يزل فيه حتى : أذن بلال بالظهر فوق ظهر السكبة . فلما كان ظهر اليوم الرابع أتى سهيل عمرو وحويطب بن العزى . . رسول الله في مجلس الأنصار ، وهو يتحدث مع سعد بن عبادة فقالا « لقد انقضى الأجل » .

هنالك أذن النبي أبا رافع بالرحيل ، وقال : لا يمسين بمكة أحد من المسلمين . وكان ذلك في السنة السابعة من الهجرة .

ومضى اثنان وعشرون شهراً على صلح الحديبية . . عندما نقضت قریش العهد « وقصد أبو سفيان يثرب يريد الرسول ليستزید من الهدنة ، فقال له الرسول له « نحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبذل » وكان النبي قد أمر بالتأهب ليوم فاصل ومضى يدعو ربه دعائه المأثور « اللهم خذ من قریش الأخبار والعيون حتى تأتئهم بغتة »

وتأهب المسلمون واستعدوا وهم لا يعرفون وجهة رسول الله فقد أخفى الرسول بحكمة القائد المخنك خطته .

وكتب حاطب بن أبى بلتعة خطاباً طوته امرأة من فريضة

في صدرها ، وجعل لها ديناراً على أن يبلغه قريشا . وترصد لها على والزير وهي في طريقها فأخذ الكتاب وعادا :

وجاءت ساعة الصفر ، وخرج المسلمون يمتطون الخيل ويركبون الإبل في عشرة آلاف ، في خمس كتائب ، ومضت القافلة في طريقها ، والمسلمون يسألون في كل منزل أين يقصدون ؟ حتى إذا نزل النبي بالمرج . قصد كعب بن مالك خيمة الرسول ليعلم وجهة الركب فقال شعراً ورجزاً .

فلم يزد الرسول على أن يبسم له . فلما بلغوا الأبواء (مكان) ثبت أن الاتجاه إلى مكة . وجاء أبو سفيان فرأى ماراعه وأذهله .. رأى جيش المسلمين في كتائبه وقوته فأسلم . وعاد يحمل النذير والبشير معا ، إذ قال رسول الله قولنه المشهورة : « من دخل المسجد فهو آمن . ومن دخل داره فهو آمن . ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »

وأقبل رسول الله في كتيبته الخضراء على ناقته القصواء . فلما دلف إلى مكة . مال حتى مست جبهته الشريفة حافة ناقته شكراً لله على نصره .

وأقيمت له الحجون قبة ولم يقبل أن ينزل بيوت مكة . ثم صلى ثمانى ركعات في ثوب واحد ملتجفا به . ثم لبس سلاحه ومغفراً من حديد . وركب الفضيضاء (دابة) ومرت وأبو بكر إلى جانبه يحاذيه . وعبد الله بن أم مكتوم بين يديه من الصفا والمروة حتى بلغ الكعبة . فتقدم على راحلته فاستلم الركن بمحجنه وكبر فكبر المسلمون لتكبيره . حتى إذا ارتجت جنبات مكة . والمشركون فوق الجبال ينظرون وكان حول الكعبة بضعة وثلاثمائة صنم مرصعة بالرصاص أعظمتها « هبل » فجعل الرسول كلما مر بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول « جاء الحق وزهق الباطل . » وطاف النبي سبعا يستلم الركن بمحجنه في كل طواف وأتى له بقدر من شراب زبيب فردده ودعا بماء من زمزم . وأتى المقام فصلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم وأمر بهبل (صنم) فكسر . ووقف الرسول على باب الكعبة فقال :

— الحمد لله الذى صدق وعده . ونصر عبده . وهزم الأحزاب
حده . ماذا تقولون وماذا تظنون ؟

قالوا : نقول خيراً . ونظن أخ كريم وابن أخ كريم .
قالوا ذهبوا فأنتم الطلقاء . ألا كل ربا فى الجاهلية أو دم
أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين . الاسدانة البيت وسقاية الحاج أن
الله اذهب عنكم نخوة إلى الجاهلية . كلكم لآدم وآدم من تراب .
ان الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض . فهى حرام .
لا تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد كائن بعدى . لم تحل لى الاساعة
من نهار » .

ادعوا إلى عثمان بن طلحة . فلما جاءه سلمه مفاتيح الكعبة
ثم جاءه الظهر . فأذن بلال فوق ظهر الكعبة . واجتمع الناس
للمبايعة فبايعهم الرسول وقال : « لا هجرة بعد الفتح » .
وجاء النساء فبايعن .

ومضى عام :

وأستدار عام آخر ، وقد أسلمت جزيرة العرب ، وكان العام
المأثر للهجرة وأذن النبي فى الناس بالحج ، فقدم المدينة فى عدد

كبير من المسلمين يريدون أن يأتوا برسول الله .

وصلى النبي الظهر بذي الحليفة ركعتين . وأحرم عند الصلاة وساق مائة بدنة ، وأصبح ببهلم . ثم أمسى يشرف السبالة ، وصلى الصبح بعرق الطيبة ، ثم نزل الروحاء ، ثم أصبح بالأبواء ، وبات بين الثنيتين ، كداء وكدى .

ثم أصبح فاغتسل . ودخل مكة نهار الاثنين الرابع من ذي الحجة . ولما دخل المسجد بدأ بالطواف قبل الصلاة . وطاف راكبا على راحلته فلما انتهى إلى الركن استلمه . وهو مضطجع بردائه وقال :

— باسم الله . الله أكبر .

ثم خرج الرسول إلى الصفا من باب بنى مخزوم . وصعد على الصفا . فكبر سبع تكبيرات ونزل إلى الروة . فلما أنصبت قدماء في الوادي ، رمل . وقال : أيها الناس : « إن الله كتب عليكم السعي فاسموا » وسمى حتى انكشف إزاره عن فخذه . فلما انتهى إلى الروة فعل بها مثل ما فعل على الصفا ، ودخل السكبة بعد ما خلع نعليه ، فلما انتهى إلى بابها صلى ركعتين بين الأسطوانتين وأقام بمكة الثلاثاء والأربعاء والخميس .

وكان يوم التروية يوم الجمعة فوعظ الناس وقال « من استطاع أن يصلي الظهر بمضى فليفعل » وركب حين زاغت الشمس في يوم التروية بعد أن طاف بالبيت فصلى الظهر والمصر والمغرب والعشاء والصبح بمضى .

ثم أصبح فسار إلى عرفة ، ونزل بمنمرة ، فلما زاغت الشمس أتى بطن الوادي فخطب الناس على نافته فقال .

« إني والله ما أدري لعلى لألقاكم بمكاني هذا بعد عافكم هذا أموالكم ودماؤكم حرام عليكم حرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

فكانت هذه خطبة الوداع .

صلى الله عليه وسلم وصلاة وتسلية على محمد الرسول ما

أنور الجندي

تم بعون الله طبع هذا الكتاب في رمضان سنة ١٣٧٩هـ
الموافق مارس ١٩٦٠ م بمطابع دار الكتاب العربي بمصر
لأستاذها ومديرها المسئول : محمد حلمي النجاوي